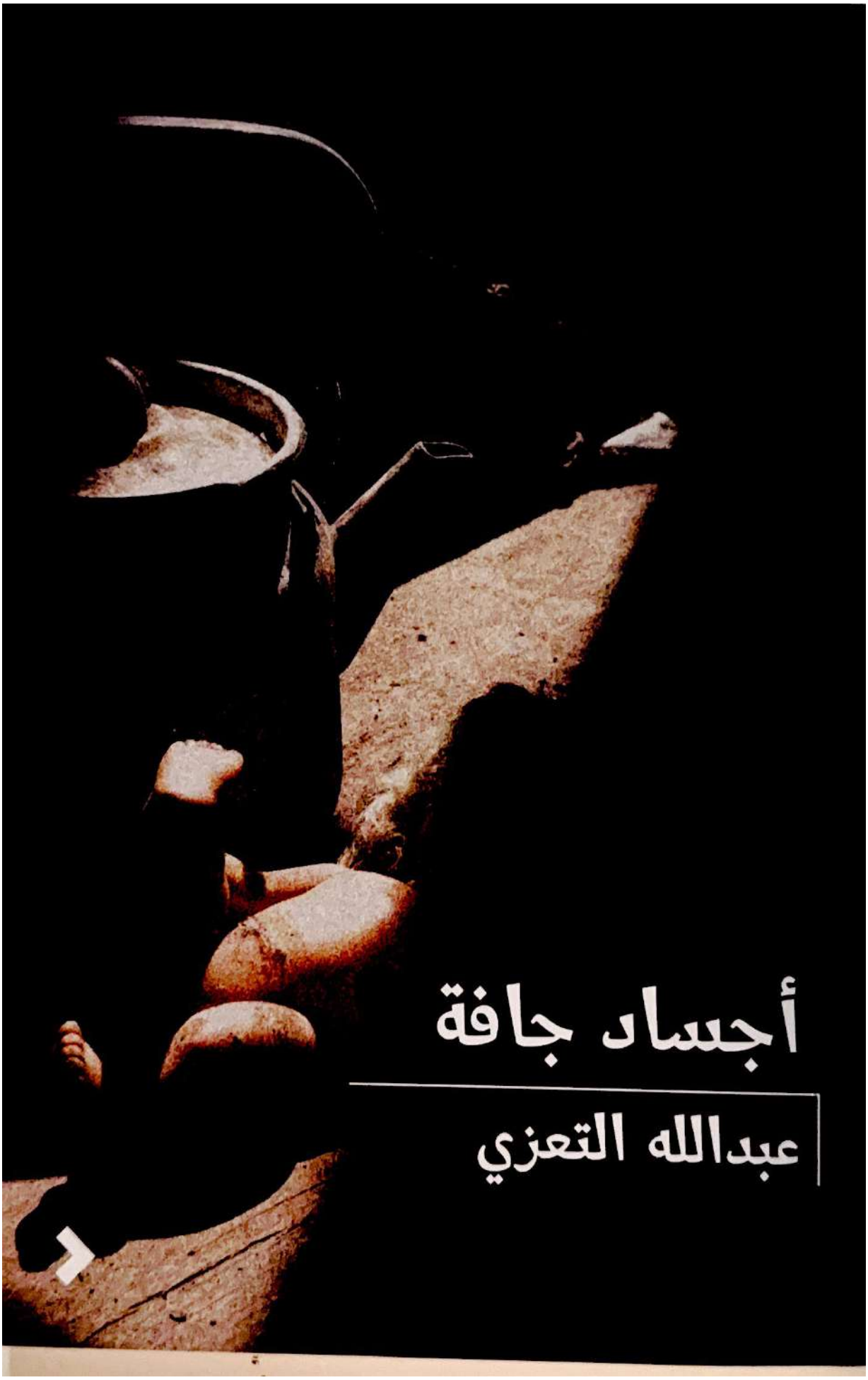

أجساد جافة

عبدالله التعزي

أجساد جافّة

أجساد جافّة

عبدالله التعزي

هذا الكتاب بدعم من:
مبادرة 1001 عنوان

أجساد جافّة

تأليف: عبدالله التعزي
الغلاف: فادي فاضل
مراجعة لغوية: محمد حسن

الترقيم الدولي (ISBN): 978-9948-02-713-3

روايات
REWAYAT

إصدارات روايات (إحدى شركات مجموعة كلمات)
الطبعة الأولى 2017

القصباء - مبنى D
هاتف: 5566696 6 971+ فاكس: 5566691 6 971+
ص. ب. 21969 الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
info@rewayat.ae
www.rewayat.ae

جميع الحقوق محفوظة © روايات 2017
تمت الموافقة على المحتوى من قبل المجلس الوطني للإعلام
المرجع: 142236
محتوى هذا الكتاب لا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر

كلمات
مجموعة كلمات • KALIMAT GROUP

بقاء النوافذ والأبواب والأرفُف في الغرف
كثيرًا ما يكون بقاء متخفيًّا
ولا يراه أحد.
لكن الجميع، في كل أنحاء مكّة،
يشعرون بالفقد
لحظة انهمار الأصوات منها
عند الهدم.

1

لي أسماء كثيرة حتى أنني لم أعد أذكر عددها. لكن أهمها كانت ستة أسماء، بقيت عالقة في ذاكرتي وكأنها أسماء شوارع في حارات مكّة لا يقرأها أحد. ستة أسماء بعدد الأزواج الذين قتلتهُم منذ أيّام الملك فيصل[1] إلى اليوم.

كل أزواجي مسنّون. حتى شعرت أنني في أحد الأوقات زوجة لمن هم فوق الثمانين من العمر فقط. أكبر أزواجي هو الأخير وكان يبلغ الخامسة والثمانين من العمر، أما أصغرهم فكان الثاني وناهز الواحد والثمانين عندما تزوّجته. لم أنجب منهم. لم أنجب طوال حياتي.

2

كنت ألعب في "الخرابة" التي بجوار بيتنا بانهماك كبير. فالخرابة في مكّة تضمّ كل ما تحلم طفلة عمرها أربع سنوات أن تجده من ألعاب الدنيا والآخرة كما كنت أعتقد تلك الأيّام. أسياخ حديد صغيرة وأعواد خشب قصيرة وملساء وقطع من أقمشة ممزّقة وأشياء حادّة ومسامير صدئة وأخرى معقوفة. دنيا كبيرة من

(1) فيصل بن عبد العزيز آل سعود (1906-1975)، ملك المملكة العربية السعوديّة الثالث.

الأشياء المتفرّقة أجمعها لأصنع العروسة الخشب، ثم أُلبسها، وأصنع لها رأسًا بجمع بعض الأقمشة الممزّقة وتكويرها ثم ربطها على مهل حول رأس العروسة الخشبي.

كان الرأس يكبر كلما وجدت المزيد من الأقمشة الممزّقة. ويستمرّ إلى أن أتمنى أن أرسم للعروسة عينين وأراها تنظر إليّ. عندها فقط أضع بعض الأقمشة وأرتبها بحيث تكون كرتة[2] مناسبة، أعتبرها فستانًا للعروسة الرائعة.

لم يكن يلتبس عليّ شيء قدر سماعي صوت العروسة وهي تهمس بذلك الفم المرسوم وتنظر إليّ ساهمة. أتطلّع حولي والفرحة لا تسعني بكل تلك الكلمات والنظرات، لأعود إلى البيت مرّة أخرى. أتقافز ممسكة بالعروسة، ونسمات الهواء تدفعها للمزيد من الكلمات والتي تزيد من سرعتي للوصول إلى البيت.

كان بيت والدي كبيرا والجميع مشغولون في تحضير الغداء. رائحة الكشنة ببصلها المقليّ بالزيت وبهاراتها الزكيّة تُسيل لعابي. أصعد الدرجات الخشبيّة الكبيرة حاملةً العروسة وفرحة الدنيا تتملّكني. أذهب مباشرة إلى المركب[3]. لا يلتفت لوجودي أحد. فسنواتي الأربع وقصر قامتي ونحول جسمي يدفعهم كثيرًا إلى الاستغناء عن خدماتي. ولكني الآن أجد رائحة الطبخ تشنقني والجوع يقرصني. قُدم لي بعض الأكل بعد أن طلبته من بُشرى الجارية؛ والتي كنت

---

(2) فستان مزموم بلبس تحته سروال طويل يسمى "بجامة". تلبس الكرتة عند استقبال الضيوف في البيت، وقد قدمت من الهند واختفت الآن.

(3) المركب: المطبخ

أسميها أُمّي بُشرى.

لم أكن أعرف معنى "جارية" في ذلك الوقت، ولكني كنت أعتبر بُشرى أُمًّا لي. فهي من يعتني بي دائما. لقد توفيت والدتي بعد ولادتي مباشرة، فأصبحت الجارية -ببياضها الفارسيّ وصوتها المتلعثم- هي كل شيء في حياتي. وقد وصفَت لي كيف كانت والدتي جميلة، وذات شعر طويل، وجسم نحيل، وابتسامة ساحرة. لم أخبر أمّي بُشرى بأنني حلمت بوالدتي وتحدّثت معها على الرّغم من أن تفاصيل الحلم تاهت بين أكداس الأحلام الأخرى الخاصّة بعرائسي، حتى أنني أحيانًا أشعر وكأنني لم أحلم بها قط.

كانت نظراتها قويّة وهي تشير إلى أقدامي المتعفّرة بالتراب، وملابسي المتّسخة، ويديّ الأكثر اتساخًا، وشعري المنكوش. بدوتُ مثل جنيّة قادمة من الخرابة! قالت: "ماذا كنت تفعلين في الخرابة يا عفريتة؟!". بادرتني بهذه الكلمات وهي تقدّم لي الطعام وتسحبني إلى بيت الماء لتغسل يدي، كما قالت في البداية، ولكنها غسلت جسمي كله. فقد اكتشفَت أن ذلك أسهل. ألبستني ملابس نظيفة وجلستُ آكل الطعام على مهل والنعاس يداعب أجفاني ناظرةً إلى عروستي الجديدة التي صنعتها قبل قليل. كانت كلمات عرائسي تحوم حول أذنيّ وكأنّها حشرات طائرة لا تتوقّف.

كنت أودّ أن أحصي عرائسي لأعرف عددهن بعد أن أضفت لهن

عروستي الجديدة ولكني نمت مباشرة على الأرض بجوار خصفة الطعام قبل أن أغسل يدي، في حين أن أصوات العرائس تتصادم بجوار أذنيّ بهمس يبتعد.

3

جرى الزواج الأوّل دون أن أدرك أنني تزوّجت. عمري كان ثلاث عشرة سنة أو أقل. ولكني أتذكّر أن الملك فيصل قد أعلن وقتها إعتاق كل العبيد في المملكة. حدث ذلك قبل زواجي بأسبوع عندما هرعت إليّ أُمّي بشرى دون أن تدري ما العمل. تزاحمت في عقلها الأشياء وهي تقول: "تعرفي سعديّة أنه لا يوجد عبيد بعد الآن؟!". قلت: "كيف؟" فأجابت: "الملك فيصل ألغى العبيد في البلد!". سألتها: "يعني ايش؟" فقالت: "يعني ما أعرف... أسأل وأقولك!".

عندما تحدّثت إليّ في اليوم التالي، كانت تتحدّث بسرعة كبيرة حتى أنني لم أفهم أغلب كلماتها، فضحكتُ لحظتها بقلق يشوبه الخوف. كانت الغمزات اللاإراديّة في عينها اليُمنى، ودمْجها الكلمات بعضها ببعض يدفعاني إلى الضحك. صحيحٌ أنني اعتدتُ على تلك الغمزات، فقد كنت أراها منذ أن وعيت على نفسي، ولكن في أوقات قليلة عندما تكون أمّي بشرى في قمّة انفعالها، فتتلجْلج الكلمات بين شفتيها، وتبدو ملامح وجهها مضحكة، فلا أستطيع منع نفسي

عن الضحك حتى تهدأ بعض الشيء لتخرج الكلمات بعدها أكثر وضوحًا من ذي قبل.

كان صوتها عاليًا وتصيح: "لقد خرج العبيد من البيوت!". لم أفهم تمامًا ما كانت تعنيه، لذلك تساءلت: "لماذا؟" فقالت: "ليذهبوا إلى الشارع... إلى الحريّة!". ولكنني بقيتُ صامتة حتى تابعَت: "تعالي نشاهدهم من فوق السّطح...".

انطلقَت قبلي إلى السّطح. سمعتُ خبط قدميها الحافيتين على أرضيّة الدّرَجات الإسمنتيّة المطبْطبة[4]. كان الصوت يصلني جافًّا كرنين مكتوم، ممّا دفعني إلى اللحاق بها بانفعال طفلة لم تفهم شيئًا. عندما صعدتُ إلى السّطح، اتّجهتُ مباشرة إلى حيث تقف، والتصقت بها بعد أن صعدتُ على الكرويتة الخشب[5].

كانت الشّمس تميل نحو الغروب بسرعة، وظلال المنازل تتداخل مع الشفق القادم من السّماء والذي ينير أسطحها بحزن. رأيت العبيد وهم يخرجون من البيوت؛ بدو مثل النّمل برؤوسهم السّوداء. كانت ملابسهم مصفرّة بسخاء، وأيديهم الضخمة فارغة فبدت كفرحة معلّقة على أكتافهم بتحرّكاتها المُفرطة. يصلنا صوت حمَام "ربّ البيت" الذي يعرف الأولاد في الحارة أن اصطياده حرام فيتجنّبون ذلك؛ فهو بلونه الرماديّ وأجنحته ذات التقليمات السّوداء يحلّق

---

(4) الطبطاب- لم تكن الأرضيات في البيوت تغطّى بالبلاط أو الرّخام، فقد كانت الأرض الترابيّة تُغطّى بالخصف المصنوع من سعف النّخل، ثم توضع عليها الحنابل*. ولكن مع قدوم الإسمنت أصبحت الأرضيّات كثيرًا ما تغطّى بالإسمنت المختلط بالتراب والماء و"تطبطب" قبل أن يجفّ الماء ليتساوى سطح الارض بميلان نحو الباب كي يسهل خروج الماء عند التنظيف. معظم البيوت في مكّة كانت تطبطب أرضيّاتها الإسمنتيّة وتستمر أقدام الساكنين بالطبطبة بعد ذلك إلى زمن لا ينتهي.

دائمًا في سماء الحرم وفضاء البيوت. إن أصواتها الهادرة تصلنا مختلطةً بنغمات العصافير الصّغيرة العائدة إلى أعشاشها فوق أشجار النيم واللوز الهندي، مع حفيف خفيف للرياح القادمة من الشمال؛ أصوات تتداخل مع وقع أقدام العبيد وهم يخرجون من البيوت، فبدوا كنهر ينساب من بين البيوت باتجاه واحد نحو الحرم. وفي كلّ يوم، وخلال الوقت نفسه من النهار، يتشجّع العبيد المتردّدون من الخروج من البيوت، فيخرجون من الأبواب دفعةً واحدة تقريبًا كأمواج سوداء صامتة باتجاه محيط الحريّة.

خرجت أمّي بُشرى من البيت ولم تعد إليه أبدًا. لم أرها بعد ذلك في حياتي. لا أعرف هل ماتت أم ما زالت على قيد الحياة. لقد هربت من حياتي باكرًا. لم يطلب أحد منها الرحيل، ولم تسأل، بل رحلت بسرعة ودون أن تودّع أحدًا أو تأخذ شيئًا من البيت.

تابعتُ الصّعود إلى السّطح كل يوم لأقف في المكان نفسه، ملتصقةً بجسد أمّي بُشرى وكأنها ما تزال تقف إلى جواري؛ أَنظُر إلى مسيرات العبيد الهادرة من البيوت والمنسابة في الشوارع والأزقّة، أراقبها بصمت ويداخلني حزن يتسحّب إلى نفسي كلّما تذكّرت أنها ليست إلى جواري؛ كنت أُشير لها ضاحكةً أو مندهشة نحو ما يحدث من عراك العبيد بعضهم مع بعض أو مع مالكيهم السّابقين... كنت أنهمك في المراقبة وأتحدث بانفعال وكأنها فعلًا تقف إلى جواري.

---

(5) سرير النوم الخشبيّ المنتصب دائمًا على السّطح.

كان لوالدي أربع جواري إضافة إلى أمّي بُشرى. والتي كانت الأولى في الهرَب. طلب والدي من الباقيات الجلوس معي إلى أن أتزوّج، وبعد ذلك بإمكانهن الذهاب إذا أحببن.

اختلف كل شيء في البيت. شعرت وكأن الضياع سيعمّ البيت بعد ذلك.

داخلني خوف وشعور بالفقْد استمرّا معي طوال عمري. لم يعد هناك أحد يهتمّ بما أحتاجه. فقدتُ حضنها الدافئ. كنت أحسَب أن بيت والدي يعتمد كليًّا على أمّي بُشرى، مثل حياتي، ولكنني عرفت أنني مخطئة؛ لم يحدث شيء! فالحياة لم تتوقف في العالم، بل توقفت فقط في داخلي. لم يشعر أحد مِمّن حولي بشيء سوى أن بُشرى قد هربت، وانتهي الأمر على ذلك.

حتى بعد زواجي الأوّل بقيت الجواري في بيت والدي يأكلن ويشربن ويخدمن. الذي تغيّر هو أسماؤهن فقط. لم يعُدن يسمّينَ جواري، ولكنهن في داخل البيت وفيما بيننا كنّ جواري! وخصوصًا بالنسبة لزوجة والدي الثالثة الحقود تلك. لم تكن تهتمّ لشيء. ولا يعنيها زعل أحد أو رضاه. كانت مثل المتفجّرات عندما تغضب؛ لا تترك أحدًا في طريقها إلا وبعثرته إلى مئات الأجزاء الداخليّة.

رُتّب زواجي بسرعة، فقد كانت زوجة والدي الثالثة بصوتها الجهوري، والذي يقترب من خشونة أصوات الرجال، تدفع

بالجميع إلى النهاية القصوى من العمل. رتّبَت لكل شيء وتم زفافي بسرعة وفي أضيق ما يمكن، مثل زيجاتي اللاحقة.

أتى مُنشد الأفراح (الجسيس) بأشعاره الجميلة، وجسّ مشاعر الحارة بأكملها. صدح الجسيس بعض الوقت ثم ذهبت إلى بيت الزوجيّة -كما يقولون- وأنا أكاد أتعثّر بفستان الفرح الطويل جدًا. كانت فرحتي فرحة طفلة منبهرة من الفوانيس والأنوار والألوان. كنت أرغب في اللعب مع صديقاتي وإخوتي الصغار، ولكنهم منعوني فاكتفيت بوضع كل عرائسي داخل إحدى شنط الدبش[6]، ودسسْت واحدة تحت فستاني؛ ربطتها حول فخذي حتى لا تسقط فيسمع سقوطها المدوّي أحدهم فيأخذها مني. كانت العروسة الباردة ملتصقة بجسدي الدافئ، وتشعرني بالأمان طوال تلك الليلة.

4

في تلك الأيّام كنت أصنع ألعابي بنفسي. لا أتذكّر أنّني اشتريت لعبة في حياتي. كنت، وأنا في الخامسة من عمري، أشاهدها فقط في الدكاكين بجوار الحرم المكي عندما كنت أذهب مع أمّي بشرى لصلاة المغرب. لا أتذكّر السبب الذي يدفعنا للذهاب إلى الحرم باستمرار، ولكننا كنا نسلك المدعى؛ ذلك الطريق من الدكاكين المتراصّة بعضها جوار بعض والمغطّى بسقف من الحديد المطليّ

(6) الدبش والعفش: أغراض العروسة.

باللون الأخضر؛ كانت ظلاله تلتصق بأعمدته المتتابعة التي يدلّني تتابعها على اتجاه الحرم. اللون الأخضر الذي يملأ سقف الطريق يوقف ركضي عند منتصف المسافة إلى الحرم تمامًا، فأتذكّر انفلات نعليّ منّي، لأعود أدراجي كي ألتقطها وألتصق أكثر بأمّي بُشرى، ثم أتابع المشي معها مبتسمة.

عندما أصل الحرم أقبضُ بيدٍ قويّة على نعليّ، وبالأخرى أتشبّث بأمي بُشرى. كنت أسميها هكذا فيما بيننا فقط؛ أهمس لها بالاسم فتنظر إليّ عند دخولنا المسْعى. أشدّ على حذائي ونحن نقترب من الكعبة حيث الزّحام بعد أن نتعدّى تلك الحصوات؛ الحجارة الصغيرة المتكسّرة والصّلبة والتي تغطّي أرضيّة الحرم حول المطاف وحتى الرواق العثماني مفصولةً ببعض الممرّات المبلّطة. كانت الحصوات تؤلم قدميّ كثيرًا عند السّير عليها مختصرين الطريق إلى حيث أعمدة الرواق، لذلك سرت –كما في مرّات سابقة- فوق بعض المفارش المتفرّقة فوقها. بعدها بأشهر شعرت أن الحصوات لم تعد تؤلمني! اعتادت قدماي عليها وأصبحتُ أسير بجوار أمّي بُشرى دون سحبها أو دفعها إلى أطراف المفارش والحنابل[7]. كثيرًا ما أشعر أننا نجلس بجوار العمود نفسه في الرواق العثمانيّ في كل مرّة نُصلّي فيها في الحرم. قاعدة العمود كبيرة، وتختفي خلفها كل أجزاء الحرم. وبعد أن أعتاد على الأطفال الذين يُقبلون من

(7) الحنابل: هي السجاجيد الطويلة والمقلمة باللون الأحمر والأزرق الباهت. انتشرت في مكّة وتوزّعت في المساجد وأسطح البيوت ومعظم الارضيّات.

الأعمدة القريبة، ألعب معهم لعبة "الغمّيضة".
كثيرًا ما أختفي خلف أحد العواميد ولا يظهر أمامي من الحرم سوى ظلّ العمود، والأصوات البعيدة، وأصداء ارتطام الأقدام على رخام الأرض. كنت أقف خلف العمود مُسندةً رأسي إليه، واضعةً كفّيّ حول وجهي لأحجب كل ما حولي من ضوء. تختفي عندها الدنيا وأسمع أنفاسي المتسارعة، تبتهج الدنيا داخلي فرحًا بهذا الاختفاء السريع في منتصف بيت الله الحرام المزدحم؛ لا تصلني الأصوات، تتجسّد أنفاسي كوحش يقف في الظلام الصّغير حولي، هناك بالقرب من أذني.
لا أعرف متى نتوقّف عن اللعب. كنت دائما ألعب إلى أن تأخذني أمي بُشرى من يدي وتجلسني بجوارها وتعطيني بعض المعمول بالتمر. آكله بتثاقل وأنا أكاد أطير نحو اللعب حول الأعمدة التي تبدو لي ساعتها كغابة متراكمة من أعمدة نازلة من السّماء. ونظراتي حائرة في احتوائها كلها وهي المتشاهقة في الارتفاع. ويخيّل إليّ في بعض الأوقات أنها تمسك بأجزاء من السحاب القليل القابع فوق رؤوسنا الصغيرة.
كنت عندما أعطش أعود إلى حيث تجلس أمّي بُشرى بجوار العمود لأشكوها عطشي فتملأ لي مغراف التوتوّة[8] لأشربها مستمتعة ببرودة زمزم الرائعة. ولكن مع الأيّام المتراكمة أصبحت أملأ المغراف بنفسي دون مساعدة منها وأسمعها وأنا أشرب الزّمزم

(8) كأسة معدنيّة خفيفة، لها يد للإمساك بها، وتُعطي الماء طعمًا "مباركًا".

وهي مستغرقة تمامًا في النظر نحو الكعبة، ممسكة مسبحتها الكهرمانيّة، تدعو الله وتطلب منه الحريّة التي لا أعرف ماذا تعني. كان الحزن يملأ صوتها وهي تقول برتابة: "يا رب، الرّحمة... يا رب، الخلاص... يا رب، الحريّة...".

لم أقاطع دعاءها مُطلقًا، ولم أسألها عن معنى "الحريّة". كنت أشرب من ماء زمزم ثم أعود بسرعة قبل أن تلحظ وجودي فتجبرني على الجلوس وأكل معمول التمر.

عندما نعود إلى البيت كانت مكّة كلها تعود معنا إلى بيوتها. كل الناس تتجه إلى أبواب الحرم. كل الناس تخرج من الحرم. كل الناس تتكدّس عند الأبواب، وأصوات ارتطام أحذيتهم على رخام الأرض عند الأبواب الخارجيّة يغطي على السلامات وصيحات الاستعجال والكلمات المبعثرة بين أقدامهم المتراصّة بعضها ببعض في انتظار فرصة للخروج.

5

اكتشفت أنني تزوّجت عندما نهضت من النوم ووجدت العجوز بجواري نائمًا بصمت الظلام. شعرت أن الرّعب ينزل عليّ من السّقف، وكأنني في منتصف كابوس. وبعد بضعة أيّام أدركت أنني تزوّجت وانتبهت لأشياء لم أكن أعرفها سواءً في غرفة النوم أو المطبخ.

بكيت بيني وبين نفسي. أدخل بيت الماء وأغلق الباب وأنشج حتى أتعب. النساء يأتين ويباركن لي وأنا أنظر إليهن جاهلةً بماذا أجيبهم. يبدو على بعضهن الحسد، أراه ولكنني لا أتكلم.

استمرّ تدفقهن حتى مللْت واشتقت إلى اللعب في الخرابة. وعندما تحدثّت مع زوجي عن رغبتي هذه، نظر إليّ ولم يتكلّم، بل انفجر ضاحكًا فرأيت البقيّة الباقية من أسنانه الصفراء. ثم سعل سعلتين وتبسّط في الكلام؛ أخبرني بكلمات كثيرة عن شيء واحد أسماه "الحياة".

عرفت منه كل شيء: طفولتي التي لن تعود، والمسؤوليات التي وجب عليّ الاهتمام بها، وأمور أُخرى لم أفهمها إلا فيما بعد.

هكذا أدركت أنني أصبحت من "النساء"، ويجب أن أتصرّف مثلهن. أُحنّي كفوفي، وأطبخ، وأستقبل النساء وأتعلّم كيف أنطق الكلمات الكبيرة التي تقف أمام الآخرين، وفي أحيان كثيرة توقفهم. كنت أبتلع كل الأفعال وأتقبلها دون مقاومة. بل كنت أستمتع بنظرات الإعجاب في عيون زوجي هذا، زوجي الأوّل.

لم أفقد عذريتي. لم أفقدها طوال حياتي، فأزواجي كلهم رائعون في آخر المطاف. زوجي الأوّل هذا كان رائعًا في الكلام وحسب. وكنت رائعة في الاستماع إليه، كما قال لي بعد زواجنا بشهر. فأثناء ما كان يتحدّث مرّة، تذكرت أن أحد أبناءه أتى إلى البيت يبحث عنه. وعندما

أخبرته بذلك، قال لي مبتسمًا بحكمة: "أنت رائعة في الاستماع، وفي المقاطعة أيضًا!" فابتسمت، ولم أقاطع أحاديثه أبدًا إلى أن مات.

تابع حديثه وأفهمني ما هو "الوانيت" الذي جاء به ابنه الكبير قبل قليل؛ انتصب في جلسته وسحب نفسًا من شيشة الجراك[9] ونظر إليّ وتابع الحديث بصوته الحاد الذي يرنّ في أذني إلى الآن. لم يكن يعرف، وأكاد أجزم أن الناس في حارات مكّة ما عادوا يتذكّرون كيف جاء اسم الوانيت. نُسيت القصّة تمامًا ولا يتذكّر أحد كيف أُطلق هذا الاسم على السيّارة. زوجي الأوّل كان من عمّال شركة أرامكو[10] السابقين. تحدّث وكأنّه يحلم عن قصة الاسم وكيف أنه في خمسينيات القرن العشرين داخل مدينة الظهران وضعت شركة أرامكو رقم "18" على باب سيارة جديدة من نوع بيك-آب (سيّارة نصف مصندقة كما يقولون تلك الأيّام)، وهي أوّل سيارة بيك-آب في الشركة. هذا الرقم أتى متسلسلًا وعفويًّا حتى أنه يعتقد بأنها كانت آخر سيارة في دفعة السيارات التي استلمتها الشركة تلك السنة. هذا الترقيم الخاص بأرامكو يسهّل التعامل مع سياراتها. وبالنسبة للبيك-آب الذي يحمل الرقم "18" فقد كان الأمريكان (والخواجات بصفة عامة) يطلقون عليه "ون إيت كار" كلّما أرادوا أن يستخدموه. فتراهم يأمرون العمّال وينهونهم بأقوالهم المتشابكة

(9) الجراك مصنوع من الفواكة المختلفة؛ تخمّر بطريقة مميّزة، وتُعطّر. كثيرًا ما كانت تصنع في المنازل في مكّة وتتفاخر بعض العوائل بجودة جراكها كونه "يصك الرأس" من أوّل نفسين. ولكن في السنوات الأخيرة انتشر جراك مستورد من الهند وتميّز بنكهته الجيّدة ومزاجه المعتدل، وقد استورده تاجر من جدة من بيت "باعشن" ليُطلق عليه "جراك باعشن". ورغم وجود أكثر من نوع للشيش والمعسّلات "الأركيلات"، فإن شيشة الجراك بقيت في مكّة كرمز للمزاج المكاوي الجميل.

(10) شركة الزّيت العربيّة السعوديّة.

والمختلطة بين العربية والإنجليزية: "هات الون إيت كار" و "خذ الون إيت كار". وأحيانًا يصرخون من على بعد: "لا تستخدم الون إيت كار!". إلى آخر تلك التعاملات والأوامر العملية التي لا تنتهي؛ لينحرف المسمى وتندمج الحروف فيما بينها ويصبحً "وانيت". ويُنسى مع رمل الصحراء الرقم "18" الذي وضع بتعب. وحتى بعد أن تهالك البيك-آب صاحب الرقم "18" وخرج من الخدمة وأُحضرت سيارات بيك-آب أُخرى لها أرقام مختلفة للتعامل معها بسهولة، بقي "وانيت" مسمى دائما لكل هذا النوع من السيارات. وأصبح مسمّى لجميع سيارات البيك-آب لدى كافة الناس في حارات مكّة والحارات الأخرى. ومع تقادم الأيّام نسج همس الحارات هذا الاسم في التاريخ واستخدمه الجميع دون تفكير أو تردد.

6

كنت أخاف كثيرًا من دهاليز بيت والدي البسيطة والمتشابكة في الوقت نفسه، فظلامها يبعث في نفسي الرعب عندما أنهض في منتصف الليل ولا أجد أمّي بُشرى بجواري. أقف عند الفرشة القطنيّة "الطرّاحة" حيث ينام الأطفال (تُفرش كل ليلة وتختفي عند الصباح) ثم أسير منها حتى أصل الباب. أفتحه وأنظر إلى

السّيب؛ ذلك الدهليز الطويل المؤدّي إلى أبواب الغرف. كان الظلام الخفيف القادم من الجدران ينتشر بطول السّيب ويشملني، فأرتعد، وأرى يدًا كبيرةً تمتدّ نحوي لتسحبني، فأغلق الباب في هلع، وأهرع لأندسّ تحت الشّرشف. أغمض عينيّ وأنام.

وقتها كنت في السادسة من عمري ولذلك كنت أبكي إلى أن أنام على وقع دقّات قلبي الهادرة.

تأتيني هذه الذكريات دائما في منتصف "الحياة". بين كل فرح أو بين كل حزن أو بين كل موت. تأتي بلا مقدمات، مجرّد صورَ تطفو على السّطح أمامي وأشعر برهبة منها للحظات، ثم تختفي وينتهي الخوف وأتابع عدّ عرائسي كما تعوّدت كل يوم.

7

لم أهتم كثيرا بحكاية زوجي الأوّل عن الوانيت ونسيتها سريعًا. فقد كنت أخاف من السيارات وأصواتها المرعبة في تلك الأيّام. اهتممت أكثر بتعلم ما يجب وما لا يجب. تناوبت الجواري على القدوم إليّ كل صباح من بيت والدي. كانت ترسلهم زوجة والدي الثانية التي كانت ضد زواجي منذ البداية. لكن "البنت ليس لها سوى بيت زوجها" كما كان يقال دائما تلك الأيّام.

عرفت فيما بعد أن زوجة والدي الثالثة قد قبضت ثمن زواجي

مبلغًا محترمًا من الجنيهات الذهبيّة من زوجي الأوّل الذي كان يملك الكثير من المال ولديه عقارات وأملاك مختلفة. كانت كلماتهم عنه تحمل الكثير من الثراء. ولكني لم أفهمها في ذلك الوقت وإلى الآن وأنا لا أستطيع فهمها، لماذا يحتاج الناس إلى كل هذه الأموال؟

في أُولى أيّام زواجي الأوّل تناوبت الجواري على تعليمي تنظيف البيت والطبخ وترتيب الطراريح والمخدات وكيف أغسل الصحون وأدعك القدور وأنظف الأتاريك والفوانيس التي كانت تستخدم في أماكن من البيت لا تصلها الكهرباء. فالكهرباء في تلك الأيّام كانت حديثة ولم تكن البيوت كلّها موصولة بالأسلاك، أما المصابيح الطويلة التي تضاء بتحريك زرّ صغير عند الباب فلم تكن موجودة في كل الغرف. ورغم أن زوجي الأوّل يمتلك المال إلا أنه تردد كثيراً في إيصال الكهرباء إلى كل أرجاء البيت. فقد كان رعبه من احتراق البيت كبيرًا، خصوصًا بعد انتشار أخبار البيوت المحترقة من الكهرباء. ولذلك كنت أستخدم الفانوس عندما أدخل خزانات الملابس أو أذهب إلى السّطح في المساء.

تعلّمت أشياء لم أكن أعرف حتى أنها موجودة. ففي أحد الأيّام أتى زوجي الأوّل بعد الظهر وقال إن صُداعًا يُنهك رأسه ويريد أن يرتاح. فلم أكلّمه، بل تركته يرتاح كما طلب. ثم قصدتُ الجارية التي أرسلها إليّ والدي لأتعلّم منها القيام بأعمال البيت التي لا تنتهي،

وسألتها قبل أن ترحل آخر النهار: "هل تعرفين علاجًا لألم الرأس؟". فتبسّمت الجارية وهي تقول: "لا تهتمي يا ستّي! لديّ أعشاب تزيل كل الآلام، ولكن..." فسألتها: "ولكن ماذا؟" فأجابت: "لا تستخدميها كثيرًا، فهي قد تُتعب الجسم" فوافقت دون تفكير: "كما تريدين. أحضريها فقط وبسرعة، هيّا...".

وعندما أتتْ بالأعشاب كان زوجي الأوّل قد نهض من النوم وأعددت له الشاي وشيشة الجراك، كان جمرها مزهرًا. عندما سألته عن رأسه أجاب دون أن ينظر إليّ: "يكاد ينفجر من الألم". فقلت له مبشّرة: "لا تهتمّ، لقد أعددْت لك عشبة بالنعناع تزيل الألم" فسألني: "من أين؟" فأجبته: "من العطّار، أتت بها جارية أبي" فطلب مني أن آتيه بها عاجلًا.

كنت قد جهّزتها في المركب. لذلك عندما عدت بها سريعا كان قد اتكأ وأمسك بمبسم الشيشة. شرب منقوع الأعشاب بسرعة. وكم كانت المفاجأة التي جعلته يبتسم وتظهر أسنانه القليلة والمصفرّة ليسألني: "لقد زال الصّداع. ماهي هذه الأعشاب؟" فأجبته: "هذا سرّا". قلتها وأعدت كأسة الأعشاب الفارغة إلى المركب.

واصلت وضع القليل من الأعشاب في كل برّاد شاي أعدّه بعد العصر. كان يهدأ بعدها وتبدو عليه علامات الراحة. وبعد أن ينتهي رأس شيشة الجراك يتمدّد فأبدأ بتلمّس جسده الجاف عضلة عضلة.

8

عدت في أحد الأيّام من الخرابة بعد أن جمعت الكثير من أغطية قوارير البيبسي. كنت قد شاهدت ابن الجيران كيف يصنع عربة وأنا في السابعة من عمري، فعرفت كيف يصنعها بسرعة. لذلك صنعت من أغطية قوارير البيبسي دواليب (كفرات) وألصقتها بصندوق الشاي بأسياخ صدئة، لتصبح عربة أضع داخلها عرائسي، وأسير بها في دهاليز بيت والدي وهي مجلجلة بصوت كفراتها الحديدية المزعجة.

كان تراصّ أغطية قوارير البيبسي مشدودًا بمطاط السراويل الأبيض. كنت أثقب ثقبًا في منتصف الغطاء بمسمار صدئ وحجر صلد. كثيراً ما كنت أضرب به يدي الممسكة بالمسمار. ومرة وقع الحجر على يدي حتى أنني بقيت يومين لا أستطيع تحريك أصابعي بدون ألم.

صندوق الشاي كان خفيفا تلك الأيّام وكنت في أوقات أعض أخشابه بأسناني فتتهشّم بسهولة وتشعرني بالقوة رغم سنواتي القليلة. كما كنت أستخدم مكرات[11] الخياطة التي أجدها في الخرابة، أو في البيت أحيانًا، لتكون هي "جنوط" الدواليب الأربعة. بعدها أصبحت أتعلّم أشياء جديدة عن عمل السيارة من خلال الأطفال الآخرين في الحارة وهم يتباهون بعرباتهم في الأزقّة والشوارع الجانبيّة.

---

(11) بكرات الخياطة.

كانت عرائسي تهتزّ كثيرًا داخل الصندوق، وأنا أسير بهن متباهيةً أمام الأطفال الآخرين في الأزقّة والشوارع الجانبيّة. إضافة إلى دهاليز البيت أمام زوجات والدي وأطفالهن الصغار.

9

بات فرحي بزواجي الأوّل لا يوصف. رغم كل التعب الذي ينتابني بعد أن أقوم بالطبخ والكنس والمسح في البيت. لم أهتم بمعرفة ماذا كان يعمل زوجي الأوّل. فقد كان لا يعمل. يذهب إلى أصدقائه المسنّين بعد أن يلبس العِمّة الحلبيّة النظيفة والسديريّ الناصع البياض، فيبدو كعريس بابتسامته ووجهه النّضر.

وعندما يعود ينام بعد الأكل، ثم يصحو ويجلس ليشرب الشاي وشيشة الجراك ويحكي لي مبتسمًا عن أصدقائه المسنّين، وكيف ينظرون إلى صحّته التي تحسّنت بعد زواجه بي، والروّح التي ردّت إلى جسده.

كان تأثير الأعشاب الذي وصفته الجارية غريبًا، فقد أزال كل ألم في رأسه وأصبح أكثر نشاطًا وأقل كدرًا وأهدأ في التعامل وفي همس الكلمات. كان بعد أن يأخذ الأعشاب يتمدّد لنصف ساعة دون أن يعرف أين هو. وكنت خلالها أتلمسه وأضع كل عرائسي بجواره وتبدو لي الدنيا وكأنها الجنة، إلى أن يستعيد جسده قوّته فينهض

وأكون قد لملمْت كل العرائس والأحلام المصطفّة إلى جواره. هكذا أصبحت أكثر قدرة على النظر في عينيه.

تلك البداية هي انطلاقتي في البحث عن عرائسي في أزواجي. كنت مسلوبة الإرادة تماما وأعتقد أنني كنت أسحر نفسي بأحلامي حتى أنني لم أكن أرى في العالم من حولي سوى عرائسي وأحلامي التي تتقطّر من رأسي ببطء، وكأنها تعود إلى الأرض خلسة.

10

بعد أن يشرب زوجي الأوّل الأعشاب، تتراخى أطرافه ويصبح أكثر تمدّدًا وينظر نحوي بلطف وكأنه في عالم آخر من الإشراق. أغمض عينيه ويسلمني كامل جسده الجاف. أخلع عنه ملابسه القليلة بلطف. بدت أطرافه أكثر نحولا ويده أكبر من ذي قبل. أبقيت على "سروال السنّة" الذي كان مناسبًا له بدكّته التي استُبدلت بمطّاط بعد ذلك، أو ربما قبله. لم يكن وسطه يحتمل ضغط المطاط عليه لذلك أبدل المطاط بالدكة، وهي حبل من القماش يُشدّ بعد لبس السروال ويُعقَد، لتتدلى أطرافه معلنةً عن وجود مختلف للأعضاء. عندما وصلتُ إلى قدميه كانت التشقّقات قد رسمت أخاديد في كعبه، وبعضها ممتلئ بقطرات من الدم الجاف. خفت كثيراً من هذه التشقّقات فقد تكون السبب في عدم قدرته على المشي قريبا.

أسرعت إلى صندوق السيسم[12] وهو جزء من دبشي القليل، والذي أُشتري لي، لكي أجهز أمام الناس كعروسة لها دبش تذهب به إلى بيت زوجها. عندما فتحت الصندوق بحثت عن علبة الفازلين إلى أن وجدتها وعدت سريعا أدهن بها كعبيه. كانت كل أصابع قدميه متشققة وبدا لي وكأن قدميه ستتمزقان إلى أشلاء بعد بعض الوقت. ذهبت وأحضرت ماء فاترًا في طشت صغير وغسلت قدميه. بعد تنشيفهما دهنتهما بالفازلين. عدت بعدها سريعا إلى عرائسي المتراصة بجواره وأنا أنظر اليه، بدا لي أكثر إشراقا.

لملمت عرائسي وأدخلتها إلى الخزانة وعدت إليه أتلمسه وأبحث في جسده عن الحياة التي أفتقدها كثيرا في عرائسي. لم أكن أعرف متى سينهض من النوم فقد كنت أشعر بأنه لم يكن نائمًا بل مستلقيا كالنائم.

في أحيان أجده يشعر بما حوله خصوصا عندما غسلت قدميه، فلقد رأيت ملامح ابتسامة تعلو وجهه بخفوت. في ذلك الوقت لم أكن أعرف ماذا تفعل تلك الأعشاب به ولكنها كانت تجعله بين النوم والراحة على ما أعتقد.

لم يطل نومه كثيرًا بعد ذلك. تقلّب على الطرّاحة القطنيّة. وانتظرت إلى أن فتح عينيه وجلس ملتحفًا الشرشف الذي غطّيته به. قال بصوت متردّد:

---

(12) عادة نقل المتاع من بيت أهل العروس إلى بيت زوجها في صناديق هي عادة مكية قديمة. وكانت أفخر أنواع الصناديق هو النوع المسمى بالصندوق السيسم، والذي يصنع من أنواع فاخرة وثمينة من الخشب، كخشب الماهوجني أو خشب الزان أو غيرهما.

"ماذا حصل؟"

"لم يحصل شيء"

"لقد نمت وحلمت بأنني أحلم!"

ضحكت عليه وأنا أسأله:

"حلمت بماذا؟"

"أقصد أنها كانت غفوة رائعة"

"نوم العوافي!"

"الله يسلمك. ماذا في قدمي؟"

"دهنتها بالفازلين... ومنذ اليوم لا بدّ أن تضع الفازلين قبل أن تتمزّق قدماك."

"آه"

قالها وأغمض عينيه ثم نظر إليّ قائلا:

"لقد كانت الأعشاب ممتازة... رحل الصداع."

"الحمد لله."

11

لم تكن المدارس تلك الأيّام مهمة. كنت أحفظ القرآن وأعرف الحساب وأستطيع القراءة بصورة جيدة جدًا. في الواقع لم أحفظ القرآن، كنت أستطيع قراءته مباشرة من المصحف. وكان هذا

يذهل زوجات والدي الأميّات، فزرعن في داخلي فكرة أنني أحفظ القرآن كاملًا إلى أن صدّقت ذلك.

دراستي في "الكُتّاب" استمرّت أكثر من ثلاث سنوات قبل أن تفتح المدارس الحكوميّة للبنات بجوار البيت.

12

كنت أبتسم عندما أرى زوجي الأوّل قادمًا بثقل السنوات التي تدفعه إلى البطء وكأنه سينهار جالسًا بعد قليل. أفتح الباب وآخذ منه بعض الأكياس التي كان دائما ما يحضرها؛ أشياء متفرقة من الفواكه إلى أقراص العيش الحب، إلى بعض الحبوب والبهارات الجافة والمطحونة. يأتي كل يوم بشيء مختلف. يحرص أن يحمل معه كيسًا عند دخوله. وعندما سألته عن السبب أجاب مبتسمًا: "لكلّ بيت حاجاته...".

لم أفهم تمامًا ما كان يقصد ولم أسأله مرة أخرى. كنت دائما آخذ الأكياس وأضعها في المركب وأعود إليه سريعًا. أساعده في خلع ملابسه، وألبسه قميصه الشّاش البارد والفوطة التكروني[13] والتي دائمًا ما يرتديها زوجي الأوّل قبل تناول الغداء ثم ينام حتى أذان العصر. بعد الصلاة أكون قد أعددت رأس شيشة الجراك كالعادة والشاي، ولم يستجد شيء سوى أنني غدوت أضع بعض الأعشاب

(13) قطعة قماش مخيطة كأسطوانة: يُدخل الرجل فيها قدميه ثم يعقدها حول وسطه. لقد جاءت مع الحجّاج الأفارقة بألوانها المميّزة ونقوشها المهرة وكأنها ترسم الجمال حول أجساد الرّجال.

التي جلبتها لي الجارية.

لقد أعجبني استسلامه لي بعد تناول الأعشاب أوّل مرة. كانت أوقات لا تقاوم جعلتني أرتب كل عرائسي بجواره وأميّز كيف كان مختلفًا في كل شيء عنهن جميعًا.

لذلك، وبعد بضع محاولات، أدركت أن ثالث فنجان من الشاي مع كميّة أعشاب مساوية لكميّة الشاي تهيّئه كما أحب أن يكون: أراه ممدّدًا على الطراحة القطنية بمساندها المكسوّة بذلك القماش المطرّز باليد.

أعدّل من تمدّده لأجعله يستلقي في منتصف الطراحة تمامًا، وأتأكد بعدها من استقامة أقدامه. ثم أبدأ بفكّ أزرار القميص الشّاش وأسحب الفوطة التكروني من حوله. أتلمّس بعدها عضلاته ببطء. يجلب لي ذلك الكثير من المتعة، فأنا أكتشف خفايا جسده الجاف والمتعب. من أين قدمت إلي هذه الرغبة؟ ومتعتها؟ لا أعرف. ولكني في الثالثة عشرة من عمري وكانت هذه الأشياء تغريني وتدهشني.

13

كان والدي مهتمًّا بأن لا أقوم بأيّ عمل من أعمال المركب. وكثيرًا ما سألني وأنا في الثامنة من عمري عن أعمال المطبخ وهل قمتُ بها. كنت أُجيب بسرعة وأعود لتفحّص الأشياء المهملة في البيت

لجمعها، فربما أحتاجها في تزيين عرائسي. أتجاهل كل حفلات الخصام بينه وبين زوجاته. فقد كُنّ مصرّات على تعليمي الطبخ والكنس وكل أشغال البيت. أما والدي فكان يقف لهن بالمرصاد صائحًا: "هذه يتيمة ألا تخفن من رب العالمين؟". يخرج بعدها بسرعة من البيت وهمهمات الكلمات تحوم حول فمه.

14

اكتشفت كل أركان جسد زوجي الأوّل خلال عشرة أيّام. وبعد ثلاث أسابيع أصبحت قدماه دون تشققات فقد كنت أداوم على دهنها بالفازلين. لم أكن أخرج كثيرًا وهو لم يعد يحتمل السهر الطويل. انغلقت على نفسي بداخله وحولي عرائسي إلى أن تسلّل الخوف إلى قلبي.

لقد مر وقت طويل بلا مشاكل تذكر. كلمات النساء حولي عن هموم الزواج ترعبني. كنت أحاول الصراخ في وجوههم بأنني طفلة وعمري ثلاثة عشر عامًا، ولكن دائمًا أتراجع وتكسوني نظرات النساء.

مرور ثلاثة أشهر دون مشاكل يرين أنها طويلة، وهذا ما أدخل القلق فيّ وجعل من الأوقات أشياء ثقيلة بصورة لا تحتمل. أخاف من تلك الأوقات وأشعر أنها ستنفجر بعد قليل. ولم يخب ظني فقد طرق الباب أحد أبنائه الكبار ودلف بسرعة متجهًا نحو زوجي وخرجت أنا.

15

اهتمّ والدي بتعليمي. في الحقيقة لم يهتم كثيرًا ولكنني شعرت بفرحة عندما استطعت قراءة القرآن دون تأتأة. وعددْت إلى المائة دون خطأ. انغرس بعدها التعليم بداخلي واكتشفت أنني أفتح بابا يفضي إلى دنيا أخرى... دنيا مختلفة تمامًا. كل الكلمات والصور الباهتة التي كنت أقرأها وأشاهدها في كتب والدي القليلة كانت تبهرني.

عندما كنت أقرأها كان والدي يبتسم وأشعر بالفخر والاستعلاء على زوجاته الأميّات. بعد أن انتهت الفقيهة من تعليمي واكتشفت كل الحروف والكلمات التي حولي، عدت إلى البيت أبحث في كتب والدي القليلة عن كلمات من الممكن أن أقرأها. بلغت التاسعة من عمري وقتها وأصبح في إمكاني الصّمت أمام الصّرخات المتتالية لزوجات والدي، وإخواني، والخادمات، والصرخات القادمة من أواني المطبخ، ومن الشارع... كلّها تتلاشى دون الشعور بألم. لقد كانت القراءة تأخذني إلى عالمها ويتملّكني شعور بأنني أغرق في منتصف الكلمات.

16

في يوم الجمعة الكئيب، مر الوقت عليّ بطيئًا قبل أن أسمع زوجي الأوّل يناديني لأسرع إليه. ارتفعت حولي رائحة الخوف متصاعدة من طبطاب البيت وخشب الرواشين المتشقّق.

كان ولده قد خرج وهو في أشدّ حالات الغضب. لم أره بهذا الشكل من قبل.

اقتربت منه ولمست ظهره ولم أتكلم، كما تعلمت منه عدم المقاطعة. تركته يتنفس جواري إلى أن هدأ قلبه ومات.

17

أصبحت أرملة كما قيل لي وأنا في الخامسة عشرة من العمر. كانت السنوات قد اختُصرت أمام عيني. كان زوجي الأوّل قد كتب أحد بيوته باسمي وهذا هو ما دفع بكل أبنائه للاعتراض وإرسال أحدهم لقتله. بعد ذلك أشاروا بأنني أنا من قتله.

لقد عاش أجمل أيّام حياته معي ولم أتكلم بها معهم. كان الحزن عليه يأتيني من كل أطراف البيت. انهمكتُ في البكاء لفترات طويلة. كانت تقاطعني أثناءها امرأة والدي الثالثة، الحقود، والتي تسببت في زواجي في تلك السن الصغيرة.

بعد وفاة والدتي بأسابيع تزوّج والدي. ثم تزوّج مرّة أُخرى بعد ذلك بثمان سنوات. وبعدها بثلاث سنوات تزوّج الثالثة. في أوقات كنت أتساءل حول وفرة النساء في حياة والدي، وما معناها بالنسبة له؟ ولكني لم أسأله مطلقًا حتى وفاته.

نساؤه الثلاثة كن دائم الخلاف ولكنهن يتفقن عليّ دائمًا. لا أعرف

كيف أقنعن والدي بتزويجي في تلك السن الصّغيرة. أردن إخراجي من البيت بأي شكل من الأشكال. وكنت طفلة لا أعرف سبب هذا الكره منهن. واليوم عندما أتت زوجة والدي الثالثة، الحقود، وهي تقيس بنظراتها أطراف غرف البيت، أدركت أنني أحرزت انتصارًا لم تكن تتوقعه. كانت تهزّ رأسها وكأنها لا تصدق ما ترى: "كل هذا أصبح لك؟". قالتها متهكّمة وصوتها يقطر حسدًا وكمدًا وكأنها مكتوفة الأيدي. لم أكن أهتم بها منذ قدومها ولكني وجدت نفسي أحترمها وأقدرها وكأنها والدتي. لا أعرف لِمَ، كنت أود أن تتعاطف معي، فقد شعرت بالخوف من موت زوجي الأوّل.

"ماذا يهمك من أبناءه؟"

"لقد مات والدهم بين يدي!"

"وماذا يعني هذا؟"

"لا أدري!"

"هو رجل في آخر عمره وأنت كنت جنّته!"

"ولكني أخاف منهم..."

"لن يفعلوا شيئًا... إنهم يعرفون أنك فتاة صغيرة ولا تستطيعين أن تفعلي الكثير لأبيهم."

"أنا لم أضع يدي عليه في ذلك اليوم"

"لا تخافي من شيء... أنت محظوظة يا بنت الّذينَ!"

خرجت مسرعة ولم تعد مرة أخرى. وكما قالت لم يحدث شيء سوى أن تناقلت الحارة بأنني قاتلة صغيرة لرجل كبير. ونُسى الأمر بسرعة، فقد تعارك أبناء زوجي الأوّل فيما بينهم حول الميراث ولم أطالبهم بأي نصيب. رغم كل كلمات التحريض من زوجات والدي. كنت سعيدة بنسيان الحارة أمري ولم أتكلّم لأحد عن الأعشاب أو عن عرائسي ورغبتي في تلمّسها مع زوجي الأوّل. دفنت كل ذكرياتي وعدت إلى بيت والدي حاملة شنطة عرائسي وبعضًا من ملابسي وكل كلماتي البسيطة الباقية في أذني من زوجي الأوّل.

18

قضيت شهرين في بيت والدي ساهمةً في أفكاري. حتى وأنا أتوسّط صخب البيت، تدوّي الأسئلة في رأسي: هل قتلته فعلًا؟ هل الأعشاب هي السبب؟ هل ابنه هو السبب؟ هل الفرح الذي كنت أراه يكبر في ابتسامته هو السبب؟

لم أكن متأكدة. فهو زوجي الأوّل وكان يسميني "أمّ السّعد." لم أكن أعرف ماذا أفعل سوى أن أهتم به. كنت أنظف المكان الذي يجلس فيه بعد نهوضه. لقد كان لعبتي التي أستمتع بها. عندما أجده يئن أجلس بجواره وألمس عضلاته وأعصرها بيدي الصغيرتين. أبدأ

من اليد اليمنى وأنتهي بقدمه اليسرى. كان ذلك يجعلني منتشية. أجتهد كثيرًا في البحث عن عضلاته المرهقة والمتورّمة فوق عظامه الضخمة. أشعر بها تنحلّ بين أصابعي، وصوته يصلني من بعيد وكأنه قادم من ظلام دولاب الملابس.

أساعده على النهوض بعدها وأدخله بيت الماء. أجلسه على الكرسي الخشبي، وأمسك بالمغراف وأغرف من الحنفيّة المغروسة في الجدار. في اليوم الأوّل كان الماء باردًا عليه وجعلني ارتجافه أتوقف. فأحضرت له الدقديق[14]، وغطيته وتأكدت من أنه يلتحفها جيّدًا. تلمّست الدقديق بيدي لألصقه أكثر على جسده كي يشعر بالدفء: "انتظر دقيقة واحدة فقط". قلتها وأنا أضع الدقديق عليه وأتأكد من أنه يغطيه من جميع الأطراف.

أسرعت إلى المركب لأسخّن الماء وأعود إليه. وضعت الماء السّاخن في تنكة الماء الكبيرة التي كانت بجواره. وبعد ذلك اليوم أصبحت أسخّن الماء قبل أن يدخل إلى بيت الماء.

ملامسة الماء لجسده المحمّل بجلده المتراخي وشعراته الكبيرة البيضاء والمنتشرة في كل أجزاء جسده النحيل تجعلني أترفّق به. لا أدري من أين كانت تأتيني كل تلك الرحمة.

أربعة أشهر وأنا أتعلّم من جسده كل ما لدى الرجل من أجزاء وهو يزداد تألّقًا وتجري الحياة في عروقه أسرع.

---

(14) الدقديق: بطانيّة (لحاف).

كنتُ زوجته الرابعة. أدركت معنى هذا في شهرنا الثاني معًا. عرفت أن هناك ثلاث نساء أعطينه كل شيء يريد. ولكني لم أهتم، فقد كنت أعطيه ما أنا أريد. كان لعبتي اليومية التي أستمتع بها وأعتني بكل تفاصيل التفاصيل المحيطة بها.

عرفت فيما بعد أنه لم يكتب لأي زوجة من زوجاته شيئًا. وأنني الوحيدة التي كتب لها البيت باسمها (بيع وشراء كما يقولون). لم أفرح، فقد كان حزني على وفاته مختلفًا. لقد فقدت لعبتي التي أحبها وأشعر بأنها تحنّ عليّ. العرائس التي صنعتهن من أشياء الخرابة كنّ صامتات باردات ولا يتحركن. ولكنه كان يتحرك ويبتسم ويحن عليّ ويضمّني إليه. عندها أشعر بلعبتي وحرارتها التي تأتي من جسده.

أحيانًا أشعر أنني قتلته عندما سمحت لابنه بالدخول ذلك اليوم. تذكرت نظراته عند دخوله ورغم أنني لم أكن أعرف ما فعل! ولم أطلب منه أن يكتب شيئًا. هو بالنسبة لي أهم شيء تعاملت معه في حياتي.

حزني كان قاسيًا علي. كل النساء كن يتهامسن عن قدرتي على التمثيل ولؤمي ووقاحة أفعالي. لم يكن يصدّق حزني أحد. كدت أفقد الثقة في حزني ولكني تناسيتهن وتركت للحزن أن يتمدّد بداخلي. إلى أن شعرت براحة كبيرة بعد أربعة أشهر. لم أهتم بعدها بأحد.

كنت قد تركت منزل والدي بعد شهرين وعدت إلى بيتي. تركت هناك كل النساء المتملّقات والمنافقات والأخريات وحتى زوجات والدي

الحسودات. تكوّمت على حزني وأنا أتذكّر أيّامي السابقة بكل دقائقها السعيدة. وبعد شهرين من عودتي إلى بيتي، شعرت بأني انتهيت من كل الأحزان المعلّقة بداخلي. حدث هذا دون مقدمات. أتتني رغبة بالعودة إلى الحياة من طريق مختلف.

19

بعد سنة على ترمّلي أتى والدي يحدثني عن زوجي الثاني وعمره، وتفاصيل كثيرة عن حالته الميسورة وقدرته وأن "الرجل لا يعيبه شيء"، وكيف أني الآن امرأة تعيش وحيدة في بيتها وكلام الناس لا يتوقّف حولها. لم أعرف ماذا يقصد بأن كلام الناس لا يتوقف... ولكني بقيت في صمتي ووافقت في النهاية على الزواج مرة أخرى.

20

زوجي الثاني كان أصغر من الأوّل وبدا لي أكثر وسامة وأقوى جسدًا. كانت حكايته الدائمة عن الجوع الذي أصاب الناس. وكيف أن الجوع هو الذي يحرّكهم. يتحدث كثيراً عنه بطريقة تجعلني، وأنا أقدّم له الطعام كلّما جلسنا نتحدث، أنظر إليه وأتأكد من أنه جادّ في حكاياته. لم يهتم كثيرا بالجنس. لم يعد لديه الجوع الكافي لكي يطلبه ولكنه يتكلم باستمرار لساعات. ينام بعدها في مكانه، متكوّمًا على نفسه

وكأنه قادم من سفر.

في بداية الزواج كنا نجلس طوال النهار نتحدث عن أشياء الجوع التي اجتاحت مكّة وكيف أن صديقه السائق كان دائمًا يجوع لكي يدخّن. كنت أجلس بجواره أستمع إليه بصمت. تفاصيله الدقيقة في الشرح وحركات يديه وعينيه تشعرني بمتعة الكلمات التي يقولها. كانت الكلمات تخرج من فمه مختلطة بدخان شيشة الجراك وقد شدّت عروق رقبته وتراجعت كوفيّته البلديّة إلى الخلف وبدت صلعته ناعمة وملساء، أستعيد بها عرائسي التي صنعتها من أشياء الخرابة قبل الزواج ولم أصنع أيّ عروسة جديدة منذ أن تزوّجت أوّل مرّة.

كان صوته يرتفع فيعيدني إليه وأتابع حكايته بشوق يفرحني:

كان السائق يملك ابتسامة متيبسة على شفتيه، وجسده جاف، واعتاد دائما على حكّ أنفه ومسحه بطرف شماغه (غترته)، والذي عادة ما يكون ملقى على كتفه. أمّا رأسه فيغطيه بكوفيّة عاديّة يتركها أحيانًا تميل إلى الأمام وأحيانًا إلى الخلف وكثيرًا ما كانت إلى اليسار أو اليمين. كلما شعر أنه يحتاج إلى اتخاذ قرارا ما، أو أن يمعن التفكير في أمر، يمد يده إلى رأسه لهرش شعره فتزحف الكوفية إلى الخلف بآلية بطيئة. فيرفع عندها حاجبيه ويعوج فمه إلى اليمين ويغلق عينه اليمنى كما كان والده يفعل.

تعرفت عليه منذ زمن بعيد.

"أنتِ لا تصدقيني يا أم الخير!"

"أصدقك...أصدقك... أكمل..." قلتها بحماس. فقد شعرت أنني أعرف السّائق من قبل!

تابع بعد أن سحب نفسًا عميقًا من شيشة الجراك:

كان السائق يسكن في "العتيبيّة"، هناك حيث يجتمع البدو في أطراف مكّة. والعتيبية هو حَيٌّ لجميع القادمين من الصحراء، فهو الأثير عندهم. تعلّم السواقة ثم جمع ما تركه له والده ليشتري هذا "الوانيت" ويعمل على نقل العفش وأحيانًا الماشية، وفي أيّام الحج ينقل الحجّاج إلى مِنى وعرفة. وله ألقاب كثيرة أطلقها أهل العتيبية عليه. فهو السائق و"الدريول" و"ولد الذيب" و"الصاحي" والكثير من الأسماء التي لا أتذكّرها الآن.

نومه قليل، فهو يكتفي ربما بساعتين من النوم في المساء فقط. وهو دائما أوّل الناهضين من النوم خصوصًا أيّام الحج. ينهض قبل صلاة الفجر حين تكون نسمات الهواء باردة ومغلّفة بصمت النائمين. يغسل وجهه بالماء البارد ويعود ليتفحّص "الوانيت" القابع بجوار المخيّم. يفتح باب الصندوق الخلفي ملتقطًا من الأرض قطعة من الكرتون، ينفضها ليجلس عليها على مهل ويدخّن بهدوء.

كان جوعه للتدخين حياة بالنسبة له، وحياة مستمرّة تفتقد المتعة أحيانًا ولكنها تبهجه وتعطيه معنى خفيفًا للاستفادة من الوقت.

فالبعض يعتقد بأنه ينام قليلا لأنه يرغب في التدخين!.

حكى لي أنه عندما ذهب إلى بستان "الزيما" في أطراف مكّة مع بعض أقاربه، كشفَه ابنُ عمٍّ له. فقد لاحظه دائم التدخين. لا تفارق السيجارة فمه خصوصًا في الصباح. ومرّة، بعد صلاتهم الفجر في جماعة صغيرة على طول الجلالة الوحيدة التي يجلسون عليها، سارع السائق إلى تدخين سيجارة بعد أن ابتعد ببطء ساحبًا قدمه سحبًا. فنظر إليه ابن عمّه صائحًا:

"لقد نهضت من النوم لتدخّن وليس للصلاة "

فأجابه مبتسمًا والدخان يتصاعد من فمه وأنفه: "وهل هناك فرق؟" فهزّ ابن عمّه رأسه قائلا بتنهّد: "لا حول ولا قوة الا بالله".

كان السائق يتفقّد دائمًا السيجارة عندما ينهض من النوم. يبحث عنها حتى يجدها ويمجّ دخانها بنَهم ناظرًا إلى كل شيء حوله بصمت. كثيرًا ما كان يستمتع برائحة التبغ المتصاعدة من ملابسه ومن يده المصفرّة، وفي بعض الأحيان يحرص على استنشاقها بقوّة.

كان زوجي الثاني عندما ينتهي من قصصه التي لا توصله إلى شيء سوى التعب، أكون قد هرعت إليه مسرعة. وتكون العشبة التي وضعتها مع الشاي قد تمدّدت في جسده وتراخت أطرافه، فأقترب منه. أتمسّك بكتفه. أشعر بأن عرائسي قد اكتست ببعض اللّحم وكثيرًا من العروق الممتلئة دمًا.

---

(15) الجلالة هي المفرشة التي توضع على الأرض وتغطّى طبطابها، ويطلق عليها "جلالة" ربما للتفخيم، فهي توضع في غرفة الضيوف فقط. وإذا بليت بعض الشيء توضع في غرفة المعيشة اليوميّة. قدمت من إيران ويطلق عليها أيضًا "جلالة عجمية". انتشرت في كل الغرف في بيوت مكّة وأصبحت من أساسيات الفرش إلى أن أصبح الناس يطلقون عليها "مفرشة" بعد أن زاحمتها قطع أثاث منزليّة أخرى أخفت بهاءها وجلالها.

كانت شعرات جسده القوية والناعمة تزرع في داخلي كثيرًا من الإشارات المبهمة. يتابع هو حكايته وأتابع أنا تفقّدي المستمر لعرائسي إلى أن يهدأ ويشعر بالتعب. فيكون الفراش قد أُعدّ بالقرب منه ليتمدّد عليه.
يتمدّد عليه ببطء إلى أن يستقرّ جسده تمامًا على الأرض. أغطّيه بعدها بالدقديق، وفي أوقات الحَرّ أغطيه بشرشف أبيض. أندسّ معه بجسدي الصغير وأغوص في صدره العريض. تتمدّد أمامي العرائس وأشعر أنها تحتويني. لقد كان عروستي الحيّة والتي تطوّقني بيديها من وسطي، وكأنها تترك هموم العالم حولي وتنام. وعادة يكون نومه سريعًا ولا يعطيني فرصة للكلام معه.

21

كان زوجي الثاني ينتقل من حكاية إلى أُخرى باستمرار. لم يشعرني بضجر فقد كنت مسحورة بحكاياته، أتعرف من خلالها على الناس في مكّة وأطرافها. اكتشفت دنيا من الحكايات الغريبة والعجيبة تدفعني إلى الحلم بها وكأنني عشتها بكل تفاصيلها التي أصبحتُ أعشقها حدّ الهوس.
بعد مرور شهر على زواجنا تقريبًا، وفي أحد الأيّام، دخل البيت ونام. ثم نهض عصرًا كعادته وجلس. كنت قد أعددت له الشاي (المنعنش) وشيشة الجراك متّقدةَ الجمر، وهو بدا لي بين البين. أمسك بمبسم

الشيشة ونظر فيّ لبعض الوقت، ثم بدأت حكاياته تنهمر وكأنها لن تتوقف. تحدث عن زوجته التي توفيت منذ أكثر من عشرين عامًا، وكيف أنه تزوّج كثيرات ولكنهن لا يجلسن معه سوى سنوات قليلة لا ينجبن فيها أيّ طفل، فيطلقهن. اختفى من الحارة وسكن حارةً أخرى، حارة الباب، هناك بالقرب من حارة الشبيكة، حتى يبتعد عن أعين الناس كما قال. ولكنه أيضًا لم ينجب. ابنه الوحيد هو ذاك الذي أنجبه من زوجته الأولى التي توفيت أثناء الولادة.

حنينه إلى حارته أرجعه إليها مقهورًا مهزومًا لا يرغب في النساء. فسنواته الكثيرة أمضاها بعيدًا عنها، قضاها في تجارات متباعدة صرف أموالها على زيجات لم تسفر عن شيء. وعندما ماتت لديه الرغبة في الأولاد، شعر بالجوع إلى حارته القديمة ومنزلهم الأوّل. فقرر العودة إلى الحارة.

22

عندما جلس ليحكي لي عن عودته إلى الحارة، كنت جاهزة لكلماته. تأكدت من كرتَتي ومن أن المحرمة والمدروة[16] فوق رأسي في وضعها الرائع؛ أقوم بلفّ ضفيرتي الطويلة بالمحرمة حول رأسي، ثم أضع المدورة فوقها، فيظهر وجهي مشرقًا وينضح بالصحّة والبياض.

دخلت وجلست إلى جوار زوجي الثاني وصببت له الشاي الممزوج بالعشبة السحريّة التي ستسري في جسده ببطء. كانت شيشة

(16) المحرمة هي قطعة قماش من الشاش أو البوال الأبيض، مستطيلة الشكل. والمدورة هي قطعة قماش بيضاء مربعة الشكل مزيّنة بتطريز ناعم في الأركان. تشترك المحرمة والمدورة بقماشهما الخفيف الذي يُدار به حول الرأس.

الجراك يومها في قمّة مزاجها. نظر إليّ وراح يستأنف الحديث الذي بدأه من قبل، فسرحت في حكايته التي لا تنتهي.

بقيت كذلك حتى صمتَ، فأدركت عندها حاجته، وساعدته على النهوض للذهاب إلى بيت الماء. عدت إلى مكاني. أغمضت عيني وكأنني في حلم لا أرغب في الخروج منه. تملّكني شعورٌ مبهر نحو زوجي الثاني جعلني أعتقد أنه يسحرني بحكاياته المتشابكة وتفاصيله الدقيقة. عاد وجلس إلى جواري دون أن أشعر به ولكنني عندما وجدته أمامي فرحت به وعانقته بقوة وأنا لا أتوقف عن تقبيله.

استمرّ بعدها في متابعة أحداث عودته إلى الحارة وتفاصيل العفش الذي أتى به. ما كان يبهرني هو قدرته على تذكر التفاصيل الدقيقة للأشياء، فهو يعطيها روحًا تفُرحني وتجعلني أنسى كل ما حولي.

كان الوقت قد تجاوز السابعة مساء عندما شعر بتعب من الكلمات وقرر عدم الخروج. فرحت بذلك كثيرا، فلقد كنت أستمتع بوجوده. لم أكن أخرج من البيت. فبعد زواجنا وانتقالي إلى منزله لم أذهب إلى بيتي القديم الذي كتبه لي زوجي الأوّل. كانت فرحتي بالبيت الجديد لا توصف. ابتعدت عن كل الذكريات القديمة التي أبكتني لشهور. تغيرّات أشعر بها ولكني لا أعرف سببًا لها. لقد قَلّت رغبتي في الخروج والذهاب إلى الخرابة. لم أعد أرغب في الحديث كثيرًا مع النساء. كنت أجلس معهن وأسمع كلماتهن ولكنها لا تصلني. أنظر

إلهن ولا أستجيب للَمْزهن وكلماتهن الحارقة. لقد انكسر بداخلي شيء وتبعثر بقوّة.

23

لم يتوقّف زوجي الثاني عن الحكايات ولم أملّ منها. بل أصبحتُ جائعة كما يقول للحكايات. أخبرني عن ولده وكيف أنه قُتل في لعبة المزمار قبل أكثر من سنتين.

كان يتحدّث عن ابنه المقتول وكأنّه يتحدّث عن شهيد:

ابني كان من المذهلين في لعبة المزمار! ويستمتع بها. فقد تربّى عليها وشربها مع ماء زمزم. وفي لعبة المزمار يقف صفّان من الرجال يتملّكهم عشق للّعب على رتم الطبول الجائمة قرب حطب النار المشتعل بين الصفّين، ثم يرتفع الزومال[17] ومعه قرع الطبول. كان اللعب في ذلك اليوم محصورًا بين أهل الحارة، وكان العمدة يتقدّم اللعب، والمزمار (شايل) الليلة بالزومال وقد انقسمت الحارة إلى نصفين ولهيب النار في المنتصف يشدّ الوجوه، فتسخن الدماء في الأجساد وتزداد نشوة اللعب، فيُسمع هدير الأقدام الراقصة على الأرض لتبدو وكأن جبال مكّة قادمة في الطريق إلهم.

كنت قد انهمكتُ تمامًا مع العدّة بطبولها المختلفة وقصائد الزومال تشدّ أذنيّ، والنار انتشرت أمامي وكأنني سأقفز داخلها مدفوعًا

---

(17) قصائد شعبية.

بقوّة أصوات الطبول الهادرة والتصفيق الجماعي الموقّع، والرجال يندفعون بعصيّهم للرقص حول النار اثنين اثنين مستعرضين مهاراتهم في اللعب بالعصا، مُصَفّين الكثير من الحسابات وباعثين برسائل التحدّي والغلبة. لم أفق من اندماجي سوى على وقع الصّمت المفاجئ جرّاء الإمساك عن قرع الطبول وبلبلة الأيدي. عُدت إلى الأرض مرّة أخرى من أعالي النشوة. تطلّعت حولي، ثم اتّجهت حيث كان التجمهر. رأيت جسد ابني ينتفض بقوّة، والدماء تغطّي وجهه وتسيل على الأرض بغزارة. اندفعت لحظتها بين الحشود. وضعت رأسه على فخذي وأنا لا أعرف كيف أُمسك بالحياة. ساد صمت كثيف حولي. مسحت على رأسه إلى أن سكنَت أنفاسه تمامًا وكفّ سيل الدماء عن التدفّق من رأسه. كان موته خفيفًا ولم أستطع البكاء بعدها لسنة كاملة.

كانت كلمات زوجي الثاني مختلطة بحزن كبير أشعرتني بفقدي لوالدتي التي لا أعرفها. كنت أنا وحيدة وهو أصبح وحيدًا.

أكمل تفاصيل قتل ولده المُرعبة ولكني نسيتها بسرعة. سنواته الكثيرة لم تساعده على طلب الثأر ولكنه عرف أن الحكومة قد اقتصّت من القاتل بعدها بسنة. ثم منع الملك فيصل لعبة المزمار في مكّة كلها لتواتر حوادث القتل أثناءها.

كنت أجلس كل ليلة لأستمع إليه وأتلمّس أطراف أصابعه المعروقة.

يمضي بنا الوقت إلى أن ينام بجواري في المقعد. قليلة تلك الأيّام التي ذهبت فيها إلى الغرفة وفرشت طاريح النوم لنا. وفي آخر أيّامه اكتفيت بفرد طاريح النوم القطنية في ركن المقعد قبل أن يبدأ حكاياته بتفاصيلها التي لا تنتهي. وقبل أن ننام، أقوم بفردها بسرعة وتغطيتها بالشراشف القطنية واضعة عليه الدقديق ثم ننْدسّ ملتصقين تحتها فأشعر بدفء جسده الجاف. وتصلني أنفاسه الحارة وبعض من قبلاته الملتهبة. يبدو لي أحيانًا وكأنه قد انتصب، ولكنه ما يلبث أن يهدأ، فتنتظم الأنفاس وترتخي العضلات وننام. كثيرا ما كنت أنام قبله، فتنظيف البيت والطبخ وأعمال المنزل الأخرى جميعها تتراكم على جسدي وتدفعني إلى الراحة.

24

كل يوم، إذا همّ بالخروج إلى دكانه في المدعى، ينظر إليّ مبتسمًا ويغلق الباب. وعندما يعود ظهرًا يكون محمّلًا بأشياء من السوق. آخذها منه وأنا أكاد أطير من الفرح. كلما رأيته مقبلًا أشعر بأن لعبتي الحقيقية أتت. أتعلّق برقبته وأطبع قبلاتي كيفما اتفق. يكتسحني شعور بالحنين نحوه لا أعرف مصدره وأشعر وكأنهّ كل الدنيا. ثلاث سنوات فقط مرّت سريعًا كنت أحسبها شهرًا واحدًا فقط. استمعت إلى حكايات وتعرّفت على كل أنواع الجوع.

عندما مات كنت نائمة إلى جواره. شعرت بموته من البرد الذي كسى كل هواء الغرفة. فقد بقَيَت البرودة في الغرفة شهرًا كاملًا. حتى أنني أجزم بأن البرودة سكنت جدران البيت إلى الأبد.
ورثت من زوجي الثاني البيت وكل حكايات العالم.

25

أخرجت كل عرائسي الصامتة تلك. صففتها أمامي ورحت أحدق فيها. كان بكائي حارقًا. وألمي لا يهدأ. عددتهن أوّل الأمر وانتظرت أن يتحركن أو أسمع صوت حكاياتهن التي لا تنتهي. لم يرتفع أيّ صوت ولم تصلني همسة واحدة. بدَوْن لي وكأنهن يهمسن فيما بينهن فقط. أعدت العدّ حتى تعبت.
كان توارد النساء المعزيات كثيفًا. يأتين، يشربن القهوة، يقلن كلمات لا أسمعها، يسلّمن عليّ وعلى بعضهن، ثم يهمسن في أذني، وأخيرًا يذهبن. وبعد إجباري على الأكل عنوة، أدخل غرفتي وأغلق الباب على نفسي عائدةً إلى العرائس، أعدّهن وأصغي لهمسهن الذي لا يصل إلى غيري أبدًا.

26

عدت إلى بيت والدي وقد انتهت ثلاث سنوات من حياتي وكأنها بضع أيّام. عزلت نفسي أسبوعًا عن الناس. لم أزر والدي سوى ثلاث مرات. كل أولاده الجدد لا أعرفهم. وعندما زرته في المرة الرابعة كان البيت شُعلة من صياح الأطفال دفعتني إلى الهرب بأسرع وقت ممكن بعد سلامي عليه وطبعي لقبلة على رأسه. خرجت ودموعي على زوجي الثاني لم تجف. لا أدري من أين كان يأتيني كل هذا الحزن عليه.

باتت أخبار قدرتي على قتل الأزواج مؤكدة. نساء كثيرات تحدثن عمّا يدور في الحارة من إشاعات وحكايات تتناول قدرتي السحريّة على قتل أزواجي دون ترك أثر أو دليل إدانة. وكيف أني أستعين بالجن كي يكتموا أنفاسهم، ويوقفوا الحياة في شراييهم، وأناجي الشياطين كي تجمّد الدماء في قلوبهم، وتحوّلها إلى رماد يسدّ كل العروق، فلا يستطيعون التنفّس، وأخيرًا يختنقون وتتصلّب الابتسامة على وجوههم.

لم أكن أضحك من الحكايات. كنت أنصت إليها حتى النهاية. ثم أبدأ بسماع حكاية أُخرى بصمت. وأنتقل بعد ذلك إلى حكاية أُخرى وهكذا إلى أن تختفي كل النساء من البيت. وهذا ما دفع بالخوف إلى أن يسكن قلوبهن جميعًا مني.

27

لا أتذكّر متى بدأت أصلّي الخمس فروض. ولكني أتذكّر أن أمّي بُشرى علّمتني التفاصيل وعدد الرّكعات منذ أن كان عمري ست سنوات. تابعت الصلاة إلى أن أتتني العادة الشهريّة، ولكنني لم أتوقّف عن الصلاة. بعد عدّة أشهر، وفي منتصف أيّام الدورة، أخبرتني بأنها ستذهب إلى الحرم كعادتها. فرحت، وأخبرتها بأنني سأذهب معها كما تعوّدنا. ولكنها رفضت بشدّة. فسألتها: "ولماذا لا أذهب معك؟". فأجابت مستغربة: "لأنني ذاهبة الى الحرم!" فقلت لها: "أعرف! ولهذا أريد الذهاب!" فقالت: "وأنت عليك الدورة!" فقلت: "أعرف هذه أيضًا..." فصاحت: "لا يجوز". فسألتها مستغربة: "لا يجوز الذهاب إلى الحرم وأنا في منتصف الدورة؟" فقالت: "نعم لا يجوز! لا يجوز!" فاعترضت: "هل الصلاة هنا تختلف عن الصلاة في الحرم؟". فسألتني مندهشة: "أنت تصلين أثناء الدورة؟" فأجبتها: "نعم!".

أدركَت أنها نسيت أن تخبرني بوجوب التوقف عن الصلاة أثناء العادة الشهريّة. كان انهماكها في أعمال البيت وهروبي الدائم إلى الخرابة هما السبب. لكنها، رغم ذلك، انبسطت أساريرها وبدت وكأنها أدركت جهلي، فأخبرتني عن محرّمات أخرى تجنّبتها أيضًا لتتدارك إهمالها.

فرحتُ أشدّ الفرح بعدم الصلاة خلال العادة الشهرية! فقد كان مغص البطن يمزّق أحشائي والألم يعتصرني خلال تلك الأيّام.
في صباح اليوم التالي، وعلى سطح بيت والدي، نهضت من النوم واتجهت إلى الحمام لأغسل وجهي وأتوضأ لصلاة الفجر. ثم عدت وجلست على حافة الكرويتة الخشبية ونظرت إلى السّماء فوقي. رائحة الصّبح التي تغلّف الأحلام مميّزة وتدفعني للانتعاش. لم أكن قد ربطت الناموسية كما هي العادة، بل فضّلت ليلتها النوم بدونها والاستمتاع بهواء الصباح البارد. كانت الكرويتة الخشبيّة في أحد أطراف السّطح، ولا أتذكّر متى وُضعت هناك، فقد كانت في السطح قبل أن أولد على ما أعتقد. نزلت بعد أن رفعت كل شيء، وعادت الكرويتة عارية الخشب كعادتها في مواجهة السّماء وشمسها القريبة.

28

جلست خلف النافذة بعد ذهاب زوجات والدي الثلاث، واختفت نظرات الحسد معهن. كنت جالسة بجوار النافذة أنظر إلى الزقاق الممتد بين المنازل المرتفعة. التي تراصّت تحتها دكاكين صغيرة أصبحت الآن تسمّى محلّات تجاريّة. مع أنها كانت جميعها تسمّى دكاكين في مكّة. دكّان الحلاق ودكّان الجزار ودكّان الخضري. سلسلة طويلة من الدكاكين المختلفة الأغراض ولكنها في النهاية دكاكين.

يظهر دكّان الأصنج للخُضار على بُعد، هناك في الطرف. والأصنج هو فاقد السمع تمامًا، ولا أتذكّر أنه فُهم من كلامه أيّ حرف قط. كان في الغالب يتحاور بالإشارات. ونظراته محدّقة نحو الواقف أمامه. وكثيرٌ من تعابير وجهه الباردة تندفع لتبدو كلماته وكأنها همهمات معلّقة بينه وبين زبائنه المعدودين.

من طرف الشارع البعيد يبدو الأصنج الآن في وفاق تام مع زبونه وفي تفاهم واضح، إلى أن تُسمع صرخات الزبون، ويبدو الغضب من حركات يد الأصنج، والتي تلوح يمنة ويسرة في وجه الزبون وكأنها تشير له بأن يرفع صوته أكثر. هكذا حتى يفترقا بغضب والأصنج يلوح بيديه، وصوته المكتوم داخل بعضه يتعارك مع الهواء حوله.

يجلس بعدها وينظر إلى الطاولة الخشبيّة أمامه وقد تراصّت حُزَم الفجل والجرجير والكرات والنعناع والملوخية والكثير من الخضار فوقها. كانت الطاولة تحتلّ واجهة المحلّ الصغير بالكامل تقريبًا وقد غُطيت بالخيش المبلّل بالماء كي تترطّب الحزم الخضراء ولا تجف وتبقى طازجة في أعين الزبائن القادمين من أطراف الحارة. وهو يقف خلف الطاولة الخشبيّة القديمة يرشّ الماء على الخيش بعد أن ينظر مراقبًا ريعان الأخضر المنطلق أمام عينيه. لا تعنيه الحركة في الشارع أمامه ولا جميع الأصوات القادمة من أطراف العمائر المقابلة.

صنجه كان دائمًا. وهو ما يذكرني بزوجي الثالث. لم أكن أتوقع أن

أتزوّج. حياتي كانت تسير أمامي وأنا ألحق بها. لقد بقيت سنوات عمري الثلاثة عشرة معلقة حول رقبتي وتمنعني من الخروج منها رغم زواجي وكأنني في سجن.

29

عندما نظر إليّ والدي وهو في شكّ من موافقتي السريعة على العريس الثالث، كنت أعرف أنه مدفوع إلى ذلك من قِبَل زوجته الثالثة. تلك الخبيثة قاسية القلب. كانت تملك القدرة وبصورة مدهشة على إدارته كيفما تريد وفي أيّ اتجاه. وأجد والدي منقادًا لها باستسلام عجيب.

عرفت فيما بعد أن كل الخطّاب يدفعون لزوجة والدي الثالثة الكثير من المال بعد أن يتم الزواج بي. لقد كانوا أزواجًا أغنياء، أو كما يقال عنهم مقتدرين ماديًّا ولكنهم جسديًّا لا يملكون سوى أنفاسهم وبقايا عظام مغطاة بالجلد.

يبدو أن زوجة والدي الثالثة كانت تختارهم بعناية تتحكم فيها الصّدَف أحيانًا. فقد كانت تقسو كثيرًا في اختياراتها ولكنها في النهاية تُفاجأ بكثرة المال الذي أجده بعد "قتلي" لهم.

لا أصدّق كثيراً بأنني أقتلهم. كنت أعيش معهم لحظات أتلمّسهم فيها فقط وأشعر بالدماء في عروقهم. لقد أصبح الموت ماثلًا

أمامي عندما أتذكّرهم. وأندفع إلى عرائسي الصامتات أتمسك بهن وأحيط نفسي ببرودتهن إلى أن أنام.

30

هذه هي المرّة الوحيدة التي لم يُقَم فيها عرس لزواجي، بل حفلة بسيطة في منزل والدي ذهبتُ بعدها مباشرة إلى منزل زوجي الثالث في طرف الحارة البعيد.

كان زوجي الجديد طويلًا ويبلغ من العمر اثنين وثمانين أو ثلاثة وثمانين عامًا كما قيل لي. كنت في البداية لا أفهم ما يقول أو ما يريد مني. لا بدّ وأن أنظر إليه كي أعرف وأفهم ما يريد. كان يُصدر همهمات غير مفهومة دفعتني في أوّل أيّام الزواج إلى الحزن عليه. لا بد وأن يتكلم حتى أسمع كلماته كما تعوّدت من أزواجي السابقين. لن يكون مثل عرائسي صامتًا وكأنها حجارة خرساء. كنت أتحايل عليه كي يتكلم ولكني فشلت بقوة. إلى أن اكتشفت أنني أصبحت أفهم قليلًا من إشاراته.

وخلال أوّل شهرين من زواجنا فهمت الكثير من الإشارات التي يقوم بها حتى أنني بعد أقل من سنة أصبحت أعشق السكون الذي يخيّم على البيت. لم تكن الأصوات تعنيني فقد أصبحت الكلمات ترنّ في رأسي وكأنها أجراس أو مآذن لا تهدأ عن الصلاة. لذلك كنت

أهرب منها إلى الاهتمام بالصمت المطبق حولي أنا وزوجي الثالث. إشاراته من يديه ذات الأصابع الخشبية الطويلة دائما تعطيني كل الحكايات والقصص والأوامر التي أتوقعها وأفهمها بسرعة.

31

حكى لي زوجي الثالث عن صَنَجِه. وصلتني كلماته وإشاراته وكأنها تهمس في أذني بحكايتها عندما كنت أسكب الماء على جسده في الحمام وبعد أن تكون العشبة قد تمدّدت في دمه كاملًا.

لقد كان مع أخوه متلازمين لا يفهمهما أحد في الحارة. وعُرفا باسم "الأصنج وأخوه". كان الأصنج هو الكبير ومنذ وُلد وهو ضعيف السّمع حتى فقد السّمع تمامًا في التاسعة من عمره. كان قد دخل الكُتّاب وحفظ القرآن، ولكن اهتمامه بالحساب كان دون حدود. تشدّه تمامًا العمليّات الحسابيّة.

هكذا اكتسب هدوءًا كبيرًا حتى أنه كان يلتقط الصخب بعينيه في بعض الأحيان. ويندفع في الفرح إلى درجة تجعل منه مُلفتًا للأنظار، فكل العيون تتجه نحوه مستفسرة عن استغراقه في الكلام غير المفهوم. لا يستمرّ هذا كثيرًا، إذ لا تلبث الهمهمات أن تضيع وسط خطوات الأقدام والعربات والمُنادين بأعينهم المتعبة.

أخوه كان الوحيد الذي يفهم تمامًا ما يقول. وهذه الميزة جعلته

مستمعًا جيّدًا وسريع الفهم. ودائمًا ما يجلس يستمع إليه منذ الصِّغر بكلماته المعوجة وصوته الغريب.

32

أتى أخوه يوم الجمعة بعد صلاة الفجر. أدخلتُه وأجلستُه وذهبت كي أعلم زوجي الثالث بوجوده. كان في انتظاره للذهاب إلى محلّ "فول الغامدي" لتناول الفطور. فقد اعتادا على هذا منذ سنوات بعيدة. تحدّث بذلك زوجي الثالث متفاخرًا بعادته هذه.

قطعا المسافة من البيت إلى محل الفول في حارة التيسير. مسافة تعتبر بسيطة رغم بُعدها النسبي. ولكن لم يكن يعنيهما هذا. فقد اعتادت أقدامهما على قطع المسافة في أقلّ من ثلث ساعة، فهما يسلكان الأزقّة والشوارع والشّعاب المتشابكة في حارات مكّة ليصلا إلى هناك دون تعب يذكر.

دائما ما يجلس أحدهما مقابل الآخر ويطلبان نفر فول بالسّمن البرّي والعيش الحَبْ. وفي بعض الأحيان يطلبان التميس الملبلب أو عيش الصامول، لكنهما اليوم وبإحساس مشترك طلبا العيش الحَبْ. أتى طبق الفول مغطى بالسّمن وقد رسمَت الطحينة تحته بقعة بيضاء متفرّقة الأطراف وكأنها لوحة رائعة لفنان محترف. بهذه الكلمات كان يصف لي طبق الفول ودون أصوات تذكر.

طلبا أيضًا طبق "معصوب سادة" للتحديق فقط. وهما عادة ما يطلبانه لكسر طعم الفول بمعصوب الموز وحلاوته الطبيعيّة. كثيرًا ما يكون محرِجًا لهما فهم هذا الكسر، ولكنهما اعتادا عليه ككثيرين في مكّة.

بعد أن خرجا، تابعتهما من الرّوشان حتى اختفيا في نهاية الزقاق، ثم عدت إلى أعمال البيت التي لا تنتهي حتى تبدأ من جديد. لكني اليوم أخرجت عرائسي ومسحت عنها الغبار العالق بها. ورصصْتها كما أحبّ حولي. أربعة من الجهة اليمنى وأربعة وضعتها في الجهة اليسرى. سنواتي الآن كانت لا تعنيني، وكنت أتذكّرها أحيانًا في نظرات زوجات والدي عندما يأتين لزيارتي بدون سبب، ويتأملن جسمي الذي استدار ونضج من كل الأطراف.

33

كان يومًا طويلًا جدًا حتى بدا لي، وأنا في العاشرة من عمري، أنه يوم لن ينتهي. فبعد أذان العشاء انقطعت الكهرباء عن بيوت الحارة كلها فأظلم بيتنا تمامًا. صيحات الأطفال في بيت والدي كانت أشبه بانفجار كبير من الصراخات الصغيرة المتراكمة مع الظلام. شعرت لحظتها وكأن الدنيا تستحيل حولي إلى عتمة شاحبة لها مجموعة من شموس صغيرة تتوزّع بطول الحارة وعرضها. لطالما بدت

الشموع والكشّافات التي تعمل بالبطاريات كفراشات مضيئة تطير ببطء بين بيوت الحارة عندما تنقطع الكهرباء.

لم أحاول البحث معهم عن الفانوس القديم، بل اتجهت إلى السطح مباشرة. صعدت بسرعة غير مبالية بأكداس الظلام المتساقطة من السّماء ولا الكثير من الأشياء المتناثرة بطول الدَّرج وعرضه، إلى أن وصلت وركبت سطح خزان الماء الذي يرتفع عن سطح البيت. جلست مستكينة بأنفاس لاهثة قليلًا، وهناك بالقرب من "أرايل" التلفزيونات الشاحبة، بدت الأصوات قادمة من بئر سحيقة داخل الارض.

متعة سحريّة تلك التي أشاهدها من هذا الارتفاع. الحارة تكسر الظلام على استحياء. جميع البيوت كانت تلمع بالضوء بين فترة وأخرى. وبعض البيوت كانت غارقة في ظلام دامس. مبنى المدرسة هو المكان الوحيد الذي يبقى ظلامه صامتًا بنوافذه النصف المفتوحة وكأنه يتحدّى جميع الشموس المتفرّقة حوله بجلال.

ترتفع الأصوات البعيدة للأطفال والنساء والسيارات بمصابيحها المتحركة فتجعل الزمن يتوقف من حولي. أسمع أصواتًا لها ألوان مؤلمة تصلني متباعدة، وتدفعني إلى تغيير جلستي ولكن دون فائدة تذكر. فالألم مستمر حتى أطراف أصابع رجلي. لم يكن لتلك الأصوات مصدر واضح، فبدا لي لحظتها وكأن هناك من ينوح في السّماء.

في ركن السطح كانت الريح وأضواء القمر تتلاعب ببعض بقايا أوراقٍ ممزّقة وأشياء هشّة جافة حد التكسّر. كانت الأوراق ترتفع في دوائر إلى أعلى فتختفي في العتمة بعد خروجها من الضوء البسيط الشّاحب المسلّط عليها من نافذة بعيدة؛ ثم تعود مرّة أُخرى إلى الضوء أكثر قوّة وتماسكًا.

كنت أنتظر أن ترتفع إليّ، فوق الخزّان، وتتهشّم عند قدمي. كان صوت طيرانها الباهت يزيد من قلق جلستي ويدفعني إلى الجنون ببُطئه القاتل. الأصوات تتضخّم من حولي. لم أعد أحتمل كل هذا الضجيج. انتفضت ووقفت باهتزاز في محاولة للتماسك فوق هذا العلوّ. تبدّت لي البيوت تحتي وكأنها تُضفي وحشة على الزقاق ورطوبة خفيفة ترتفع إلى أنفي تذكّرني بنداوة الصباح. رائحة التراب الرّطب تتصاعد من سطح الخزّان ومن جدرانه الرّطبة ناثرةً عبقها كبخار صاعد إلى السحاب. لا ترتفع الأبخرة كثيرًا بل تظلّ تحوم بين قدمي. وربما تهبط بين المباني وفوق تراب الشارع لتعود مسرعةً إليّ، ناشرة من حولي رعبًا وجاعلة من بقائها الثقيل رمزاً للرعب. هبطتُ درجات السلّم نازلة ببطء. كانت الأصوات مستمرّة حولي. تنساب بجوار أذني وكأنها ستلتصق بها. تابعت النزول متناسية الظلام، كما صعدت، إلى أن وصلني الصوت الجهوري لزوجة والدي الثالثة. أدركت عندها أن الحارة قد عادت إلى تنفّسها

المعتاد بوجود الكهرباء، لتمارس بعدها الحياة وكأن شيئًا لم يكن. متناسين ذلك الظلام المهيب الذي انطلق من كل بيوت الحارة.
أصبحت بعدها لا أخاف من الظلام قَدْر خوفي من أصوات الظلام، والتي كانت تأتيني كلما انقطعت الكهرباء.

34

اعتدت على انقطاع الكهرباء بين الفينة والأخرى. وبقيَت هذه الانقطاعات تحدث لسنوات، مرّة واحدة، كل شهر أو شهرين. ولكني أتذكّر انقطاع الكهرباء بخوف عندما أتذكّر نظرات زوجي الثالث المرعوبة.
عدم قدرته على الكلام ونظراته الخائفة كانتا تدفعانه إلى تلمّسي وتنهّداته الفرحة لا تهدأ. انقطعت الكهرباء قبل دخوله البيت، أثناء سَيْره في الشارع وترقّبي له من روشان البيت. عندها فجأة انقطعت الكهرباء وأظلمت الدنيا وبدأت الأصوات تصلني من وسط الظلام الحالك. نزلت إلى الدّور الأوّل مسرعة بخوف، ولكن قدمي اصطدمت بشيء ما لم أميّزه، فقد شكّل الظلام طبقات كثيرة أمامي.
سقطت بجوار الباب عندما كان زوجي الثالث يفتحه ليدخل. ارتميت عند قدميه، فظهر طرف وجهي ورُعبي عندما سقط نور

الشارع الباهت عليه. فأمسك بي بسرعة ورفعني حتى وقفت مرتبكة بعض الشيء.

كان عناقًا طويلا لمست فيه صدره وقدرته على الخوف. تمسّكت به وأنا أكاد أطير من الفرح، فقد كان يخاف فقدي كما أصبحتُ خائفة من فقده. دخلنا وجلسنا بعدها وتكلّمنا بطريقتنا المشتركة، الصامتة أحيانًا والضاحكة في أوقات متفرّقة.

عندما أتذكّر ظلام تلك الليلة أشعر وكأن زوجي الثالث ماثل أمامي بكلماته المبهمة وطوله المهيب. جسده متماسك وكأن عدم سماعه لأصوات العالم جعله هكذا. بدت الأصوات وكأنها ستكسره من الداخل لو وصلت إليه. لذلك كنت أُبقيه بعيدًا عن عرائسي. أجعله هو الوحيد الذي يتمدّد بصمت ولا أتحدّث إليه. أتلمّس أصابع يده اليمنى وبعد ذلك اليسرى إلى أن أصل إلى كتفيه الصلبين.

أتلمّس عضلاته المنهكة تحت جلده المتجعّد. كانت شعيرات جسده الطويلة ترفع يدي عن جسده كلما تراخت يدي. وفي بعض الأوقات أجدني أتابع تلمّس شعر كتفه دون الوصول إلى جلده. أراه في تلك اللحظات يغمض عينيه وكأنه في منتصف حلم.

بعد أن أصل إلى ظهره أكون قد استعدت إدراكي وأصبحَت متعتي في المتابعة لا توصف. أصنع دوائر وطرقًا ومنازل على ظهره بيدي. أسير فيها على عضلاته في طلوع ونزول مستمر. تتابع تلك الحركات

والتأوّهات الممتعة التي يطلقها بين فترة وأخرى. مما يدفعني إلى المزيد من الطُرُق والدوائر والكثير من المنازل المتفرقة التي أدفعها حتى أصل إلى أطراف ردفه الضامر.

أكون عندها قد أحسسْت بانتشاء القمر في منتصف السّماء. وأشعر برغبة في العواء كذئبة. أفيق وقد وصلت لبداية فخذيه. أمسّدهما معًا عدة مرات. ثم أنزل إلى بطّة السّاق المهترئة وأتابع النزول إلى القدمين. يتصبّب منّي العرق وأشعر بنهاية مشوار اليوم. ليس تدليكًا ما كنت أقوم به، بل كلمات أُطلقها على جسده حتى يستعيد الحركة كما كان. لذلك أشعر بعدها وكأنني قد تحدثت أكثر من اللازم. فأُصاب بالسكوت ليوم كامل أفقد خلاله رغبتي في الكلمات التي كثيرًا ما أستعيدها من جسده كلما ضممْته إليّ خلال الأيّام اللاحقة.

35

خمس سنوات أضفتها إلى عمري قبل أن يموت زوجي الثالث. في أوّل سنتين لم أكن منتظمة في وضع الأعشاب في برّاد الشاي. أتكاسل عندما يبدو لي أنه أكثر صمتًا من ذي قبل. يصيبني بعض التعب من النظر إلى عرائسي وهو ينتصفهم مرسلًا نظراته إلى سقف الغرفة. ما كان يخيفني أنه عندما ينهض يبدو نشيطًا بصورة كبيرة. لم

أسأل عمّا تفعله الأعشاب في جسده. ولكنها كانت تخدّره وتعدّل من مزاجه وتجعله من أجمل عرائسي.

نسيت القول بأنني كنت أيضًا أحتسي معه من الأعشاب إيّاها. شربت مع أزواجي كلهم من الأعشاب. تمدّدت إلى جوار العرائس معهم. كنت أجدني وحيدة في بعض الأوقات وكثيرًا ما نهضت وتركت مكاني الدافئ فارغًا، أخلع ملابس زوجي الثالث قطعة قطعة، مبقيةً فقط على "سروال السنّة" الذي يلبسه. لم أكن أحب مشاهدة بقيّة أجزاء جسده المهترئة.

كنت أنظر في عينيه المغلقتين اللتين كان أحيانًا يفتحها باستسلام. ينظر إليّ من الحلم ويترك كل جسده الجاف ليديّ. أجلب بعض الزيوت الفوّاحة وأمسح بها جلدَه الحيّ. أزيل أجزاء من جلده الميت. إنّ لعبة الموت والحياة، تلك التي ألعبها مع عرائسي، أعيدها نفسها مع زوجي الثالث. أعيدها مع كل أزواجي. لا أملّ منها.

في بعض الأوقات أشعر بأنني مريضة بهذه اللعبة. مربوطة إليها وكأنني أُساق إلى مجزرة. وفي أوقات أُخرى أجد أن أزواجي أيضًا مريضون بهذه اللعبة.

عندما ينهض زوجي الثالث ينظر إليّ بحنان ثم يضمّني إلى صدره ويخْرج منتصب الظهر، وعطور الحارة تفوح من جسده. كنت عندما ألمس رقبته وهو مستسلم ليدي أدعكها بلطف، وفي لحظات

أشعر أنني سأخنقه لأحرّر صوته المحبوس في صدره منذ عشرات السنين. ولكني أتراجع وأنزل إلى كتفيه ثم إلى صدره المنهك لأقتل الوقت وبهجة الفرح. أتلمّس برؤوس أصابعي أنفاسه وأستنشق عبير الجلد القديم. أمسك بأطرافي كل حنان الطفولة المفقودة. أسترجع بها أحلامًا بعيدة وسعادة لم تولد. كيف كانت تراودني الأفكار؟ وكيف كان يأتيني الفرح؟ لم أعد أذكر.

كنت أبتهج بكل اللحظات التي تأتيني بقربه. أسعد بكل أصابعي وهي تلمس جسده. ربما هو وهم أبحث عنه. ربما هو حلم أفيق منه. قد تكون حقيقة أهرب منها. أو قد تكون كلها مجتمعة. أيضًا لم أعد أذكر.

عندما أتحسّس منبع حياته الأولى، سُرّته الغائرة في القِدَم، أستعيد بعض توازني. أتأمّل عرائسي حوله. ثمان عرائس وفي أوقات تسع عرائس وكثيرًا ما كنّ سبع عرائس فقط. أرتبك في عدّهن كلما تداخلت السنوات مع الأحداث حولي.

كثيرات هن العرائس حولي ولكن أشعر بأن الحياة بعيدة عنهن.

كنت دائمًا أتفقّد نبع الحياة في منتصفهن الخشبيّ. ذلك المسمار في المنتصف حيث اليدان تمسكان ببقيّة الجسد الجاف.

أتلمّس رأس المسمار الأسود. لا حياة.

أتلمّس أطراف الأيادي الخشبيّة المتشقّقة. لا حياة.

أتلمّس أطراف الأقدام الخشبيّة المتلاصقة. لا حياة.

أعود إلى زوجي الثالث وكلّي فرح بدفق الدم في عروقه. وكنت أتفتّق ألمًا وحبًّا وكأنني أفتقد العالم من حولي، والضوء خفيض، والأصوات متباعدة، ورائحة البخور تأتي دون انقطاع من جدران المنازل المجاورة. وأنا أتلمّس بهمس كل عضلات ساقه.

كنت أضع خدي على ساقه في حين تكون رأسه على المخدة وأنا أنظر إلى عينيه المغمضتين. وفي أوقات أُفاجأ به يفتحهما وينظر إليّ بحبّ، أو هكذا كنت أشعر وأنا مخدّرة بالأعشاب، فتكتسيني فرحة الدنيا والآخرة. أستسلم لخدر النظرات، تهبط حولي كل حنانات الطفولة، تسكن بين أصابعي، لأتلمّسها أينما وضعت يدي.

أنهض بعدها مستسلمة لكل قبلاته وشهقاته وأحضانه البائسة. ليبدو لي العالم كأروع ما يكون. وأشعر بلهيب الهتافات وكأنها بدأت من جديد، وقوّة النغم تتراقص بين ضفائري. ينسكب شَعري على ظهري وأكاد ألمس الشعرات عند اقترابها من ظهري وابتعادها أثناء تموّجها خلفي. أنتبه بعدها إليه فأجده ممدّدًا بهدوء وكأن روح القمر سكنت رأسه. أقترب منه وأتمدّد إلى جواره وأغمض عيني وأنام.

36

مع زوجي الثالث أصبحت كل أسبوع أحضّر الشاي مع الأعشاب المهدئة. وكنت أكتشف مدى انتظاره لهذا الوقت. أستسلم معه لخدر العرائس ونستسلم للوقت. خلال الثلاث سنوات الأخيرة لم ننقطع عن الأعشاب حتى لأسبوع واحد، فقد كان يدفعني لذلك بكل الطرق. لقد أدمنها، وأنا أيضًا أدمنت عرائسي وكل أنواع الشاي في العالم.

عندما عاد إلى المنزل في آخر أسبوع له في الحياة، كان الوقت بعد المغرب، والفرحة لا توصف تلك التي تتراقص لي في عينيه. ضمّني إلى صدره وأطلق العنان لقبلاته وليديه تتلمّسني جزءًا جزءًا: "أهلًا... ما هذا الفرح؟".

لم يتكلّم بالطبع، بل أمسك عصاه وتقدّم إلى الأمام، وأسندته في خطواته حتى وصلنا. جلس في الداخل. طلب الشاي. سألته عن فرحه مرّة أُخرى ولكنه بالطبع لم يتكلم، بل تابع نظراته إليّ يستحثني على جلب الشاي.

عدت سريعًا بعد أن وضعت الأعشاب كما هي عادتي. ولكننا في ذلك الأسبوع لم نحلم بشيء. لم أُخرج كل عرائسي. لم أتلمّس جسده كثيرًا. كنت شبه منوّمة وسعيدة لفرحه. كان انهمار اللحظات لا يوصف. التصقت به وأبقيت جسدي دافئًا به إلى أن مات ونحن في قمّة النشوة وعرائسي الجميلات يتقافزن حولنا بتصلّبها المستمرّ.

37

كنت طوال أيّام العزاء الثلاثة منتشية، فرحة. أبتسم في داخلي. أبني جدارًا لا يسمح لأيّ ألم أن يصلني. ولكني بعد ذلك انهرت تمامًا. تملكتني رغبة مرعبة في الحزن، وشعور كبير بالخراب.

بعد انفضاض المعزّين من حولي واختفاء النساء، أُطفئ الشارع، وأُغلق الباب خلفي، فأشعر بوحدة الدنيا تعتصرني.

بكيت طوال ثلاثة أيّام أُخرى بعد ذلك. أرسل والدي لي إحدى جواريه، أو لم أعد أذكر. تأتي بالطعام، تحمله إليّ، وأنا أمسح دموعي. تضعه على الأرض في المقعد ثم تخرج. كانت تنظر في عينيّ علّها تجد نيّة مني لأخذ الطعام، ولكنني أتجاهل رغبتها وأدير ظهري. تحتار أين تضع الأكل. كنت أسمعها تسألني في بعض الأحيان ولكن لا أجيبها، بل أدخل إلى غرفة النوم واستمرّ في البكاء ولا أشعر بها عندما تخرج.

38

لم أعد إلى بيت والدي. بقيت سنة في منزلي صامته وأنفاس زوجي الثالث تتردّد حولي. أفقت عندما أتى والدي لزيارتي. كانت مفاجأة لي. لم أعتد على مجيئه إلي، كنت أنا التي تذهب إليه. جلس بعض والوقت وطلب مني العودة معه إلى البيت. وعدت إلى بيته بصمت لأبدأ العودة إلى الدراسة التي نسيتها تمامًا. كانت فكرة والدي.

التحقتُ بصفوف مدارس محو الأميّة. كنت أتوقع أنني سأكون أصغر طالبة في الفصل ولكني تفاجأت بأن هنالك طالبات أصغر مني. لذلك قررّتُ المدرسة تحويل دوام الصّف كله إلى الدراسة الليليّة بعد موافقة معظمنا.

39

أصبح عمري ستة وعشرون عامًا. أشعر أنني لم أتجاوز الثالثة عشرة من العمر. أتصرّف مع الجميع كما تعلّمت أن أفعل، ولكني لا أجيب على حسدهم أو نظرات القهْر المستمرّة. كنت لا أعرف كيف أجيب على كلماتهم، لذلك أكتفي بالصمت أو التجاهل خوفًا من أن يعرفوا جهلي التام بكل ما حولي من أمور. كنت أخاف أن يكتشفوا أنني طفلة عمرها ثلاثة عشر عامًا فيبدؤوا مسلسل الضحك الذي لن ينتهي.

انقضت سنتان، شعرت خلالها بأن زوجات والدي الثلاث سيصبن بجلطات في الدماغ من تجاهلي وعدم شعوري بهن وبكلماتهن الحارقة. ولكنهن لجأن إلى حيلتهن القديمة في التخلّص مني عبر إخراجي من البيت.

نعم... تزويجي للمرّة الرابعة.

40

استمرّ مسلسل الزنّ على والدي ثلاثة أشهر حتى رضخ لهن وهو يلعنهن في نفسه، كما لاحظت ذلك في عينيه عندما فاتحني بأمر الزوج الرابع. كان يعرف أنني سأوافق منذ البداية وقبل أن يحدّثني عنه. يصلني إحساس من نظراته أنه يراني طفلة كما أرى نفسي. ولذلك وافقت بسرعة وخرجت من البيت عروسةً تحمل عرائسها.

41

زوجي الرابع جزّار، منتفخ ومكوّر الكرش. تراكمت السنوات عليه طبقات طبقات من الشّحم المدكوك. بلغ الرّابعة والثمانين من العمر ولم يعد لديه أيّة زوجة. لقد قتل منهن ثلاثًا، كما قتلتُ أزواجي الثلاث. كنّا متعادلين في القتل.

أعلن عن استسلامه منذ أوّل يوم. لم أكن أتوقّعه بهذا الانهزام. أتى إليّ منقادًا إلى المسلخ، مثل ثَوْر عجوز. كلماته تخرج مع أنفاسه بقسوة وسرعة. يخاف من أولاده كثيرًا، فقد كانوا عشرة أولاد وتسع بنات. نقل خوفه منهم إليّ. في البداية تسلّل إليّ الخوف، ولكنني سرعان ما نسيته تمامًا. لقد جذب زوجي الرّابع اهتمامي كلّه.

إنه من أجمل العرائس التي لعبتُ معها في حياتي ولن أنساه أبدًا. ابتسامته وضحكته الرائعة المجلجلة تُدخل في قلبي البهجة. لم أكن

أستطيع تلمُّس عضلاته بيدي، لذلك كنت أقف بجسمي النحيل على جسده، (أدعس) عليه من أطراف قدميه إلى أن أصل إلى كتفيه. كنت أضع قدمًا على كتفه الأيمن والأخرى على كتفه الأيسر وهو يتطلّع إلى منتصفي الذي فوقه. كان ينتظر هذه اللحظة كل يوم ليُطلق عندها ضحكته المجلجلة ثم يصمت فجأة. وفي أحد الأيّام سألته عن السبب، فقال:

"كنت أبكي بصمت"

"تبكي!؟"

"نعم أبكي على نفسي."

"لماذا تبكي على نفسك؟"

"لعدم قدرتي على العيش كما أريد..."

لم أفهم تمامًا ما قال، ولكنني أدركت بعض الأشياء.

تابع بعدها:

"أنت يا أمّ الكلّ هديّة من الله لي في آخر حياتي. لو أنّك أتيت قبل سنوات؟"

"ماذا كنت ستفعل؟"

"كنا سنفلّ كل شيء!"

وتعالت ضحكته بقوّة أربكتني فأجبته بسرعة:

"ألسنا نفعل كل شيء الآن؟"

"نفعل كلّ شيء، ولكن "كلّ شيء" يختلف باختلاف العمر..."
"لا تكن طمّاعًا..."
"الإنسان بطبعه طمّاع."
وأخيرًا يسُكتني بضحكته المجلجلة وأنا أحضنه في فرح غمرني فجأة ودفعني نحوه بقوّة. كانت يداي حول رقبته ورأسه الضخم، أمّا جسدي فكان كلّه يستند عليه ليتّجه إلى الخلف متمدّدًا وأنا ممددة عليه، وكأنني أتمسّك برقبته لكيلا أنزلق، ويمسكني هو بضعف.

42

بعد خروج زوجي الرابع، في ذلك اليوم، وجد الملَل إلى نفسي طريقًا طويلًا دون نهاية. جلست في دهليز البيت أنظر إلى الطبطاب الإسمنتي متتبعةً الشقوق المتعرّجة باحثة فيها عمّا يمكن أن أزجي به الوقت. أعُدّ بعض البقع السوداء، ثم أتتبّع العروق المتعرّجة. أنقل نظراتي بين الشقوق تحت قدمي. الوقت الصّامت لا يمرّ بسرعة وبدا لي دون حركة. عدت إلى غرفتي واستسلمت لخدَر السرير إلى أن سمعت طرقات قويّة على الباب أرعبتني.
نهضت بسرعة وفتحت الباب. ليندفع اثنان من أبناء زوجي الرابع مع ابنته الكبيرة إلى داخل البيت. كانوا يحملون على أجسادهم كميّات هائلة من الشحوم؛ أصوات تنفّسهم عالية، وحركاتهم

البطيئة بأجسامهم الضخمة بدت مرعبة، وخُيّل إليّ أنهم قادمون من آخر الدنيا.

لم يتركوا لي فرصة لأقدّم لهم بعض الماء أو العصير ترحيبًا بمَقْدمهم كما هي العادة. كانت الكلمات تتطاير من أفواههم، مختلطة بريقهم ورائحة الشّحم البارد تحوم في المكان منذ دخولهم.

لم أفهم ماذا يريدون. تكلّم الابن الأضخم صائحًا منذ دخوله:

"إذًا أنتِ عروسته الجديدة...سمعت عن جمالك... إنك فعلًا جميلة..."

"..."

صاحت أخته وكأنها تتعارك معه:

"وماذا تعرف أنت عن جمال النساء... هل هذه جميلة يا أعمى!"

كان صمته أقرب إلى تمالك النّفس منه إلى العجز. ابتعد عن طريقها لتهجم عليّ وتكيل لي الصّفعات بيدها المنتفخة وأنا أحاول حماية وجهي، متراجعة إلى الوراء حتى تكوّمت في ركن الغرفة. لم تبدر مني أيّة إشارة للعراك. كان الخوف والارتباك والإحراج وكل اهتزازات الأرض قد اعترتني. صرخاتي فقط هي التي تصل إلى الشارع. أظلمت الدنيا بعدها واختفت الأصوات وشعرت بجسدي ينهار على الأرض.

43

لم أذهب إلى المدرسة لأسبوع حتى انتهت المشكلة بوليمة كبيرة، اعتذر فيها الأبناء لي ولوالدي بعد أن أبلغَ الشّرطة، وبعد الكثير من المعارك الكلاميّة بين العائلتين كادت أن تؤدي إلى طلاقي. زوجي الرابع هو الوحيد الضائع في هذه المعركة.

أصبحت بعدها أحاول نسيان الحادثة. كنت أستغرب كيف يستطيع أناس بتلك الضخامة أن يعتدوا بالضرب على طفلة عمرها ثلاث عشرة سنة!

أتذكّر أنني بعدها أصبحت أتمنى أن يموت زوجي الرابع بأسرع وقت ممكن. كان جسده يبدو لي كجسد ثور لا يتحرّك. والأعشاب التي ضاعفتُ كميّتها راحت تُمتعه وتجعله أكثر سكونًا من قبل. هكذا حتى سكن جسده تمامًا بعد أربعة أشهر من مرور الحادثة.

لم أحزن عليه كثيرًا. كنت أهرب من تذكّره كي أنسى الخوف الذي في رأسي. مات ولم أعد أتذكّر أيّامه.

44

لم تتركني نساء الحارة من لمزات وغمزات وكلمات وقحة وكلمات حاقدة وحاسدة. وأنا بدوري، وبكل ما أملك من إغراء أنثوي بجسدي البِكْر وفرحي الغامر بالحياة في سنّ الثالثة عشرة وعناده،

لا أجد هذا مُستغربًا. بل أعتبره مفروضًا على كل نساء الحارة. وأعتبر نفسي متميزة بهذا الحسد الدائم. تمرّ أيّام أودّ فيها سماع بعض كلمات القهْر من نساء الحارة، ولكني أضحك مع نفسي أمام المرآة وأستعيذ من إبليس اللعين ناظرةً إلى جمال جسمي المتناسق.

دفع هذا زوجات والدي إلى تزويجي للمرّة الخامسة. كان استسلامي لوالدي كاملًا. لم أكن أعترض على كلماته. وإن كان يخجل من بعضها عندما يتحدّث إليّ في الفترة الأخيرة من حياته.

رتّب لي كل أموري المالية؛ فتح لي حسابًا في البنك وتولّى تأجير البيوت الأربعة التي ورثتها. ويقوم بإيداع الإيجارات في حسابي باستمرار. وتابع، بهمّة ونشاط، تحصيل التعويض لبيتي الأوّل عندما قررت البلديّة شقّ طريق في منتصف الحارة. كان التعويض كبيرًا أودعه بالكامل في حسابي.

بعدها أصبحت من أصحاب الملاين ولكن لا أحد يعلم ولم يُخبر أبي زوجاته. لم أكن أصرف شيئًا من الحساب تقريبًا. فأنا لا أعرف ماذا أفعل بكل ذلك المال.

كنت أتقدّم في الدراسة باستمرار مفرح أربكني ولكنه أيضًا دفعني إلى المواصلة بقوّة حتى حصلت على شهادة الثانوية العامة.

وبعد عدد من الحوارات مع والدي، الذي بدا لي مُرهقًا ومُتعبًا من الحياة، وافقت على الزواج للمرّة الخامسة. شعرت أنني يجب أن

أتزوّج كي أتخلّص من نظرات زوجات والدي وكلماتهن الحادّة. خصوصًا أن والدي اشترط على زوجي الخامس إكمال دراستي الجامعيّة وإلى أن أتعب من الدراسة. وافق زوجي الخامس مباشرة وكتب عقد الزواج في الأسبوع التالي.

45

زوجي الخامس أخبرني، منذ اليوم الأوّل، أنه أتى لكي يموت بين يديّ. فاحترت يومها بماذا أجيبه؟ كان مستسلمًا لي وكأنني أصبحت فعلًا قاتلة محترفة.

كان نحيفًا جدًّا ويبدو كأنّه مريض. قفصه الصدريّ بارز وفيه من الجلد أكثر ممّا فيه من العظام. فبدا الجلد متهدّلًا وكأنّ العظام تُمسك به. لا يملك أسنانًا، فجميعها ذهبت خلف الأيّام السابقة. ويضع طقمًا من الأسنان المصقولة ليبدو ذو ابتسامة رائعة.

لكي يستعيد ابتسامته باستمرار، اعتدْت على غسل طقم أسنانه يوميًّا وهو نائم. ألتقطه من كأسة الماء التي يضعه فيها قبل أن ينام. أُمسكه بيدي اليسرى، وآخذ الفرشة بيدي اليمنى، وأنظّف الأسنان وكأنها لإحدى عرائسي الصّامتات. أدعكها على مهل ثم أتأكّد من نظافتها بالنظر إليها عن بُعد. وبعدها أتحسّس رائحتها بأنفي.

إن طعم النظافة يدفع إلى الحياة الجميلة. وكثيرًا ما يبدو الوقت

مرتبطًا بالنظافة. لذلك عندما ينهض زوجي الخامس أكون قد انتهيت من كلّ شيء وأعدْت طقم الأسنان إلى مكانه. كنت أنتظر ابتسامته الصباحيّة وكأنها إشراقة اليوم الأولى. يتملّكني هذا الشعور معه وهو الوحيد الذي أنتظر قيامه من النوم ليبتسم لي. ربما لاستسلامه منذ البداية مع أنني لم أكن في معركة حتى يستسلم. ولكنه مع الوقت وبعد ثلاثة أشهر من الزواج ازدادت صحّته جمالًا واكتسى جسده حيويّة كان قد نسيها. وكثيرًا ما كان يجلس بعد العصر ليقول ضاحكًا:

"أتيت لأموت ولكن الحياة رفضت خروجي منها."

"سلامتك من الموت لماذا تود الهروب مني؟"

"أنا لا أهرب، لقد... لقد أتيت إليك لِمَا سمعته عنك."

"وماذا سمعت عني؟"

استمرّ في الكلام عن حكايات كثيرة ليس لها أصل. اختلاقات وأكاذيب وتهويمات من كل الناس في الحارة. لا أعرف كيف يستطيع الناس خلق كل هذه الحكايات والقصص عني وهم حتى لا يعرفون شكلي.

بعد أن تعب من الكلمات والجلوس المستمرّ، وبعد أن أظلمت الدنيا من حولنا وصلينا العشاء، تمدّد. غطّيته بالدقديق بعد أن دهنتُه بالفازلين، فقد كان جلده جافًّا قليلا. لم يمانع. استلقى على ظهره

وأغمض عينيه. تلمّسته من رقبته وكتفيه إلى أن وصلت أطراف أصابعه الجافة والتي تذكّرني بخشب عرائسي الجميلات المتشقّق الأطراف. لاحظت أن جلده قد تماسك عن ذي قبل. شعرت وكأن العروق قد عادت تضخ الدم إلى أطرافه.

كانت تندّ منه آهةٌ بين الحين والآخر، خصوصًا عندما تصل يدي إلى المفاصل. لقد كان تصلّبها قاسيًا وأشعر بها مثل المسمار الذي أضعه في منتصف الصدر الخشبي لعرائسي الجميلات كي يبقيها متماسكة. لقد باتت مفاصله متخشّبة ولا أعرف ماذا أستطيع أن أعمل بشأنها. طلبت منه أن يذهب إلى العطّار ليأتي ببعض الأعشاب، أو "اللبخات" التي من الممكن أن تزيل جزءًا من التحجّر السّاكن مفاصله.

46

كان زوجي الخامس يملك أربعة عمائر كبيرة كما قال لي. لديه سائق يذهب به إلى مكتبه لمتابعة الإيجارات وأعمال الصيانة ولقاء أصدقاء العمر كما يحبّ أن يسميهم.

كنت أسكن في شقة كبيرة في إحدى عمائره الأربع، فقد اختفت البيوت في مكّة وأصبحت تزدحم بالأبراج الكبيرة الضخمة.

ماتت زوجته قبل أربع سنوات ولم ينجب منها أولادًا. لم يقل هل هو من لا ينجب أم هي، وأنا كعادتي لم أهتم.

47

انقضى شهران وأنا أستخدم الأعشاب التي أُحضرها من العطّار بانتظام. كنت لا أملّ من متابعة تحسّنه المستمر. بعد أن تسري أعشاب الشاي في عروقه، ويسترخي جسده تمامًا، يتحدث إليّ في بعض الأوقات مبتسمًا: "لم أكن أتوقّع أن الموت سيتأخّر كثيرًا..." فأجيبه: "سلامتك من الموت" فيقول: "أشعر بأن الحياة تجتاحني بقوّة...".

ثم يصمت لبعض الوقت، وأكون قد انتهيت من وضع العرائس بجواره. وأكون قد لاحظت أنها باتت عرائس باهتة وصامتة؛ لم تعد تهمس لي بتلك الكلمات الصغيرة. لأسمعه يتابع كلماته الهادئة بعدها متنهدًا: "يا أمّ الهنا... أشعر بأن جسدي يمتلئ بالحياة منذ أن تزوّجتك".

لم أكن أجيب. فقد كان اهتمامي بالعرائس الجميلات كبيرًا وحزني على جفافهن أكبر. لم تصلني كلماته، كنت أسمعه فقط ثم أتذكّرها بين الحين والآخر. لا أجد فيها ما هو جديد أو مهم. هذه البرودة تبدو لي مستمرّة منذ أن بدأت بالزواج؛ لم أكن أنتظر من أزواجي كلمات شكر أو عطف أو إعجاب أو أيّة كلمات أخرى، لذلك عندما تأتي تلك الكلمات لا أشعر كثيرًا بها، وفي أوقات قليلة تصنع معنى آخر لحياتي. ولكني كنت دائما أستمتع بوجود أزواجي في حياتي وحسب.

48

عندما توفي زوجي الخامس كنت في قمّة نشوتي معه. شربنا الشاي بالأعشاب واجتاح الخدر أطرافنا كلّها معًا. عادةً يتأخّر جسدي عن الاندماج. لذلك أجد وقتًا لعرائسي، لصفّها حول زوجي والنظر إليها. في ذلك اليوم شعرت ببرودة الموت في جسده، ولكني كنت في قمّة النشوة وجسدي لم يعد ملكي. لذلك تمدّدت إلى جواره مستسلمة لملاك الموت الحاضر ولم أدري عن شيء. أظلمَت كل الجدران من حولي وراحت تبتلع عرائسي الجميلات.

49

سنتان فقط هي التي عشتها مع زوجي الخامس. ولكنه أشعرني بأنها أكثر من عشرين سنة. فاستسلامه للموت أشعل في داخلي الحياة، وأصابني خوفٌ عليه من الموت. كنت أحاول أن أبقيه إلى جواري. أستمع إلى حكاياته المتهالكة والجميلة. أستعيدها عندما يخرج وأنتظرها عندما يأتي. كنت أشرب الأعشاب عند ذهابه كي أرتفع إلى جمال وجوده المستسلم ذاك. تختفي كل الدقائق وتأتي كلماته وكأنها نجوم تلمع في سقف الشقّة كلّها. كنت أسير عارية وأنا منتشية بالأعشاب في غرف الشقّة وممراتها. أتحسّس جسدي في كل المرايا إلى أن أصل إلى عرائسي. أتمدّد بجوارها متطلّعة إلى كلماته المعلّقة في السّقف وأنام.

50

كان حزني على زوجي الخامس غريبًا عليّ. شعرت بالفقد. لم تعد هناك كلمات تلمع في سقف الشقّة بعد موته. أظلمَت الدنيا من حولي تمامًا. كنت أشعر بأنه يتحدث اليّ طوال أيّام العزاء. كلماته تدوي في رأسي. تلك الكلمات التي لم يقلها ولكني رأيتها في عينيه.

51

احتجت إلى أربع سنوات متواصلة كي أستعيد توازني؛ أنهيت فيها دراستي الجامعيّة وحصلت على درجة البكالوريوس في اللغة العربيّة. لم أتقدّم بها للعمل في أيّ مكان.

أصبحت في الخامسة والثلاثين من عمري. ولكني مستمرّة في حمل تلك الطفلة التي عمرها لم يتعدّى الثلاث عشرة سنة. لم أستطع أن أكبر. أحببتُ سجن الطفولة الذي كنت فيه.

والدي تهدّم وأصبح أكثر ضعفًا وصار يشبه كثيرًا أزواجي السّابقين. خفت عليه منّي. فقد وجدتُ كل ما وصلوا إليه متجسّدًا أمامي فيه. لذلك بقيت في شقتي بعد أن اكتشفت أنني قد ورثت كل أملاك زوجي الخامس وأصبحت من الأثرياء في مكّة كما أخبرني والدي.

كان يتحدّث والسعال الحاد ينبثق منه وسط كل الكلمات. لم يخبر زوجاته بثروتي. لم يخبر أحدًا في العالم عن أملاكي. نظرات الندم

التي ترتسم دومًا في عينيه عندما يتحدّث إليّ تعذّبه وتعذّبني.
كنت أشعر أن والدي ضحية لنسائه القاسيات. وضحية لرغباته واندفاعاته. ولكنه والدي الذي يُشعرني دائمًا بأنني ما زلت ابنة الثلاثة عشر عامًا. وهو الوحيد الذي أشعر أمامه أنني كما أحبّ أن أكون.

52

عدت إلى منزل والدي بعد أربعة أشهر على وفاة زوجي الخامس. تكالبت الأمراض عليه، وشعرت بأنه اقترب كثيرًا من الموت. فداخلني الخوف، ولذلك عُدت إلى بيته بسرعة.
أصبحت أنا من يعتني بوالدي. استخدمت كل ما أعرفه من أعشاب وخلطات وزيوت في علاجه. لم يعد يوزّع أيّامه على زوجاته. سنواته السبعين أصبحت تجبره على البقاء في الدور الأوّل من بيته. كنت أنام في الغرفة المجاورة له وزوجاته يتناوبن على جلب الأكل لنا.
مضت ستة أشهر إلى أن عاد إلى نشاطه واستعاد قوّته، وقد انتهت حرب جهيمان وقتها، ونُظّف الحرم، وعادت الأمور إلى سابق عهدها. لكن والدي لم يعد إلى نسائه، فقد بات ينام كما اعتاد طوال الأشهر الماضية، واستأنف خروجه لمتابعة أعماله. فعدت أنا إلى شقّتي أشرب القليل من العشبة وأجلس منتشية بين عرائسي الصامتات.

53

وافقتُ على زواجي السادس عندما أتت إليّ زوجة والدي الثالثة، وأخبرتني أنها تحتاج إلى المال الذي ستحصل عليه بعد زواجي، لأجل ابنها الذي يحتاج إلى سيارة جديدة بدلًا من تلك التي تهشّمت تمامًا في آخر حادث له. كانت تتكلّم بكل قوّة وجُرأة وكأنني ملكها وعلى علم بكل حيلها التي قامت بها من قبل لتزويجي من أجل المال. ولكني وافقت عندما عرفت أن والدي هو الذي أرسلها (وأنها تراني كبرت وعقلت) كما تقول، وتفترض أنني أعرف أن والدي لم يعد يكسب كما كان من قبل، فأحوال السوق تحوّلت وانقلبت ضده. لذلك كانت كلماتها مباشرة وبدون مراوغة.

كنت أعرف أن والدي أرسلها بعد أن شغلته بكلماتها التي لا تنتهي. وأدركت أنه موافق إذا أنا وافقت. وأنه لم يأت ليفاتحني هو بالأمر خوفًا من نظراتي المباشرة تلك إلى عينيه. كنت أنظر إليه دائمًا كطفلة عمرها ثلاث عشرة سنة في انتظار كلمات الدها.

كانت زوجته الثالثة تقول في نهاية حديثها:

"والدك هو الذي أرسلني لأسألك."

"ولماذا لم يأتي هو؟"

"لا أدري... اسأليه عندم ترينه!"

كانت نبرتها حادّة وصادمة ومخيفة. لقد بقيت كما هي، لم تتغيّر، إلى أن قتلتُها.

54

في آخر زيارة لوالدي سألني عن رغبتي في الزواج للمّرة السادسة، ونظرات الأسف بادية عليه. لا أدري هل شعر بأنني ظُلمت بزواجاتي السّابقة من كبار السن؟ لم أسأله وهو لم يقل. ولكنه لم ينظر إلى عينيّ مباشرة. لم يكن يرغب في رؤية ألمي منه، رغم أنني لم أكن أفكر في ذلك. كان فرحي بوالدي وهو يسأل عني ويتكلم معي لا يوصف.

لقد كنت أعتقد أنني بنت عمرها ثلاثة عشر عامًا ووالدها يعاملها كامرأة. فرحي كان لا يوصف. أفرك يدي وأنظر إليه منذهلة وارتباكات معدتي تكاد تدفعني للاستفراغ.

كنت أودّ أن أقول له أنني ما زلت عذراء. وأن أزواجي زادوا من فرحي بالحياة. وأنني انغمست في حياتهم حدّ الجنّة. كانت رائعة تلك الحيوات. لعبت فيها وقفزت بين جمالها وكأن الحياة لن تتوقف من حولي.

لم يسمعني والدي، بل أمسك بفنجان الشاي وارتشف منه ثم أعاده وهو يقول:

"الحمد لله، أنت في أحسن حال."

"الحمد لله."

"ومن حفَر حفرة لأخيه وقع فيها."

لم أساله ماذا يقصد ولكنه قالها عندما أتت زوجته الثالثة القاسية ونظرت إلينا، ثم استطلعته بقوّة وكأنها تودّ قتله.

55

لم أحتفل بزواجي السادس كما كان في زواجاتي السابقة. لم يكن هناك سبب لذلك غير ظروف الموت التي بدأت مبكّرًا. فبعد أن اتفق زوجي السادس مع أبي المريض على موعد الزواج في الأسبوع القادم، توفي أحد أبنائه في حادث سيارة قبل الزواج بأربعة أيّام. كما نُوّم والدي في المشفى. شعرت منذ البداية بأن النهايات قادمة وبسرعة.

لم يؤجّل الزواج، بل طلب أن يكون بدون احتفال (سُكّيتي). اعترض والدي في البداية ولكنه وافق بعد موافقتي. شعرت بعدها وكأن والدي لم يكن موافقًا على زواجي.

كان زوجي السّادس أرملًا في الخامسة والثمانين من العمر. وقد أصبحت أنا، وبصورة متداولة وشبه رسميّة، زوجة يحلم بها كبار السن. لا أطلب ولا أتكلم ولا أنكّد كما يقولون. كنت أعيش وأفرح بهم فقط. لم يعد يذكر أحد قتلي لهم. كانوا يستقبلون الموت وهم في قمّة الصحّة ويذهبون سريعًا كما أتوا إليّ سريعًا. عرفت فيما بعد أن ابنه الذي تُوفيّ كان متهوّرًا ومستهترًا وعاقًّا بوالده. وأنّه كلّفه كثيرًا من الأموال إلى آخر تلك الحكايات التي لا تنتهي.

لقد كان زوجي السادس مرتّبًا إلى درجة لا أعرف كيف أجاريه فيها. فكل أشياءه يجب أن تكون في مكانها منظمة وموضوعة بالصورة المناسبة. منذ اليوم الأوّل وهو شديد الأناقة والنظافة. بدا لي أجمل من عرائسي القديمات. منذ اليوم الأوّل شعرت أن هناك تغيّرًا في داخلي.

56

انتقلت إلى بيته الجميل في حي العزيزية بمكّة. كانت تسمى "فيلا" كما عرفت فيما بعد. لم يكن بيتا كالبيوت التي اعتدت السكن فيها لسنوات خلت. لقد كانت أملاكه كثيرة جدًا. وأول ما فعله بعد زواجنا هو أنه كتب تلك الفيلا باسمي رغم أنني لم أطلب منه ذلك. ولكنه كما قال لي: "الأولاد لديهم الكثير وأنت تستحقين".

لم أتكلّم، فقد كنت غارقة في رائحة النظافة التي تنطلق منه. شعرت وكأنني فعلًا أمامه كطفلة لا تعرف كيف تتكلّم، خصوصًا عندما أخبرني أن والدي مريض ويودّ أن يراني.

57

عندما رأيت والدي ممدّدًا على سريره البارد وقد جفّ جسده تمامًا، جلست إلى جواره صامتة أتطلّع إليه وهو ينظر إليّ وكأنّه يطلب منّي الخلاص.

لم أتردّد. عدت بشنطة عرائسي وقرّرت أن أبقى إلى جواره. فإحساسي بأنها النهاية تملّكني، وبدأت مباشرة بإعطائة أعشابي المخدرة تلك. كانت نشوته لا تختلف كثيرًا عن نشوة أزواجي السابقين، لأكتشف لحظتها تشابه الرّجال، وأُدرك كم كانت الطفلة بداخلي صغيرة رغم كل السنوات التي مرّت إلى جانبي.

لم أسمح لأحد بزيارته عندما تتمدّد النشوة في أطراف جسده. كنت أغلق باب غرفة نومه من الداخل، وأترك والدي يمدّد أطرافه وابتسامة الرّضى تعلو شفتيه. ثم أقوم بوضع عرائسي إلى جواره. يبدأ بعدها سيل المقارنات وتنهمر الكلمات من الأفواه الجافّة لعرائسي. أرتفع عندها بتلك الأصوات، وبحضور والدي، إلى أن أرتمي إلى جواره وقد هدّتني الفرحة وأدركني التّعب وأظلم العالم من حولي. تحسّنت صحّة والدي بعد أسبوعين من الأعشاب اليوميّة والأفراح المتتالية من النشوة والعرائس. كنت أعرف أن هذا التحسّن السريع هو بداية النهاية، والتي سينفجر عندها قلبه من الفرح ويموت مبتسمًا بجواري وجوار عرائسي. دموعي لم تتوقف من البكاء عليه طوال أيّام العزاء؛ فقد كان موته مدويًّا في داخلي. لا أستطيع أن أتخيّل أنني قتلته. لقد بدا لي كعصفور بين يدي تلك الطفلة التي بداخلي؛ تُمسك به بخوف إلى أن خنقَته تمامًا بكل ما تملك من رحمة. بقيتُ شهرًا بعد وفاته لا أتكلّم مع أحد، إلى أن أتى زوجي السادس إلى البيت وأمسك بيدي وقادني إلى بيته كهزيمة صامتة.

58

بعد وفاة والدي، تعاركت زوجاته وأولاده فيما بينهم على تركته البسيطة. كل واحدة تودّ أن تمتلك البيت. كنت أنظر إليهن وأبتعد، فقد بدين لي كوحوش ضارية.

بقيت سنتين حزينة على وفاة والدي. لقد كان ضحيّة لي وضحية لنسائه أيضًا. تراودني هذه الفكرة أحيانًا. وأحيانًا أتناسى قتلي إيّاه تمامًا وأرى أنه والدي ويجب أن أحزن عليه. لقد كان حزني مندفعًا ومتردّدًا في الوقت ذاته.

فقدتُ عادتي في الذهاب إلى بيت والدي كلّما شعرت ببعض التعب من الحياة. فأثناء حياته، وعلى الرغم من كلمات زوجاته التي كنت أتركها قبل أن أغادر البيت، فإن زياراتي كانت تجلب لي الكثير من الفرح عندما أرى وجهه وأقبّل يديه. ولكن بعد وفاته لم أرجع إلى بيته قط.

59

كان زواجي السادس نهاية مبكرة لحياتي الرائعة التي عشتها لعشرات السنين وأنا لم أتخطّ الثالثة عشرة من العمر. كانت نظافته عجيبة. يرتّب كل الأمور بصورة رائعة حتى أنه في بعض الأحيان يثير استغرابي. لم يكن هناك من داع، مثلًا، لأن تكون منشفة الحمّام المفرودة على ماسورة جدار الحمّام في منتصف الماسورة تمامًا! كان

يحرص على وضعها في المنتصف بعد أن يمسح بها وجهه. لم ألحظ ذلك بسرعة. ولكني كنت أجدها دائمًا في المنتصف بعد أن أمسح وجهي بها ويدخل بعدي الحمّام ليستخدم المنشفة فيعيدها إلى المنتصف. المسافة بين طرفَي المنشفة متساوية. حتى ستارة البانيو ومكان صابونة الغسيل، والمسافة بين الصابون السائل ومعجون الحلاقة ومكينة الحلاقة كلّها يجب أن تكون المسافة ذاتها. كانت لديه قدرة غير عادية في تقدير المسافة بين الأشياء.

أرهقني، في البداية، لدرجة أنني أصبحت لا أطيق كل تلك الملاحظات التافهة التي يبديها في كل وقت، وبمناسبة وبدون مناسبة. لم أستطع احتماله. فمهما اجتهدت في ترتيب الأشياء، يأتي ليعدّل من وضعها بصورة أكثر ترتيبًا. وحتى فساتيني المعلّقة في الدولاب، عندما وقعت عينه عليها، أخذ في ترتيبها وفقًا لطولها وقصرها. وقف أمام الدولاب لأكثر من نصف ساعة يُدخل فستانًا ويخرج آخر إلى أن رتّبها بصورة مذهلة. وكان يتأكد من ترتيبها كل يوم في الصباح عندما ينهض. بقي الترتيب كما هو، أستلّ ما أحتاج لأرتديه ثم أغسله وأعيده في المكان نفسه، وأخيرًا أُغلق باب الدولاب وشعور بالرضى يملأ المكان.

دفعني إلى جعل البيت مرتبًا بصورة لا تصدّق. اكتشفت أن الترتيب ليس صعبًا أو مرهقًا. عندما أُحضر الشّاي وأضع الأعشاب، أُعيد

كلّ الأشياء إلى مكانها. وبعد أكثر من سنة أصبحت نظراتي تعرف المسافات بين الأشياء فأُصلح كل خلل فيها. مع الوقت أصبحت أشعر وكأن الأشياء ستنفجر إذا لم تكن مرتبة بعناية وحرص. في البداية كنت أخاف أن يكتشف زوجي السادس بعض الارتباكات في المسافة بين أشياء المطبخ، فيقوم بترتيبها، وسينتهي إلى اكتشاف الأعشاب ويسألني عنها، لن أعرف بماذا أجيبه، وأنا لا أحبّ الكذب. لذلك لم أترك له أيّة فرصة. كان ينظر إلى أشياء المطبخ في أوقات متباعدة بعيون راضية من الترتيب الذي أقوم به. انطلق بعد ذلك الترتيب إلى كل تفاصيل حياتي إلى أن أصبحتُ لا أطيق الفوضى. كنت أشعر وأن البيت في حالة ارتباك كاملة إذا وجدت بعض الأشياء ليست في موضعها الصحيح. كانت النظافة والترتيب همّه الأوّل وأعتقد أن قدرته الجنسيّة رُتّبت خارج اهتماماته منذ سنوات قبل أن يتزوّجني، لذلك بقيت عذريتي معه إلى أن مات بين يديّ. وكنت قد أدركت مدى مباهاته أمام أصدقائه بزواجه من امرأة صغيرة، وقُدرته على القيام بكلّ الواجبات الزوجيّة، وإرضاء زوجته تمامًا. فقد كان التحسّن في صحّته دليلًا لا يعرف الكذب.

مع الوقت أصابني مرض الترتيب حتى أصبحت بعد سنتين أكثر حرصًا منه. أُصبت بهوس الترتيب حتى في خطواتي والممرّ الذي أسلكه بين الغرف، يجب أن يكون كل شيء متوسّطًا مكانه. عندما

أصلّي أحرص على الوقوف في منتصف السجادة، وعندما أسلّم في نهاية الصلاة، لا بدّ لمدّة التسليم التي أقضيها مديرةً رأسي إلى اليمين هي نفسها عندما أديره إلى اليسار. أرهقت نفسي كثيرًا حتى صرت أشعر بالصداع إذا لم تكن الأشياء في مكانها المناسب.

راح ينظر إليّ غير مصدّق. حتى أنا لم أكن أصدّق نفسي. أتاني الترتيب بقوّة دفعتني إلى الجنون مغلّفًا بالأشياء وأماكنها. لذلك، بعد شربنا الشاي بالأعشاب بالأكواب الصغيرة كما هي العادة، أحرص على صفّها وسط صَحْن التقديم. حتى تقليب السكّر الذي أضعه في أوقات متباعدة يجب أن يكون وسط الكوب، وعدد مرّات التقليب يجب أن تكون زوجيّة ومتساوية العدد في الاتجاهين؛ أمّا الاتجاه الأوّل فمع عقارب الساعة، وأمّا الثاني فهو عكس ذلك.

60

هوس الترتيب أعاد إليّ حقدي على زوجة والدي الثالثة تلك. كنت أعرف طمعها وجشعها وحبّها للمال بأيّة طريقة. كانت وقاحتها قد بلغت قمّتها بعد أن استولت على البيت وطردت زوجات والدي الأخريات، ثم أتتني تطلب مني أن أساعدها في ترميم المنزل المتهالك لكي تزوّج ولدها المستهتر. لم أستغرب منها هذا، فهي لا تتردّد في سبيل المال بعمل أيّ شيء.

عندما جلسَت أمامي وشعورٌ بالهزيمة يتشكّل في نظراتها، بدا لي جسدها جافًّا تمامًا وقد استفزني وأعاد إليّ كل جبروتها السابق نحوي. وعندما أخبرتني بالصداع الذي يفتك برأسها، أصبحت أمامي فريسةً سهلة المنال.

كانت خلطة الأعشاب الأولى قويّة، وهي البداية. كنت أصرف الخدم ولا أُدخل أحدًا إلى مجلس النساء بعد أن أقدّم لها مشروب الأعشاب السّاخن اللذيذ. أتركها تحتسيه لبعض الوقت إلى أن تتمدّد النشوة في جسدها. عندها أساعدها في النوم على الكنبة الكبيرة التي تجلس عليها. أُحضر بعدها عرائسي الجافّات وأضعهن على الأرض بجوار الكنبة. أروح بعدها أراقب الجميع من مكاني حيث أجلس مسترخية.

لم أتمدّد إلى جوارها كعادتي دائمًا. حقيقة لم أستطع أن أتمدّد إلى جوارها. جسمي لم يشعر برغبة الاقتراب. كنت أستمع إلى أصوات عرائسي العالية وأنتشي بهن إلى أن يهدأ الضجيج من حولي وتبدأ زوجة والدي الثّالثة بالأنين، وشبح ابتسامة يرتسم على وجهها سرعان ما يختفي.

كنت أعطيها جزءًا بسيطًا من المبلغ المطلوب لكي تعود إليّ في الأسبوع القادم لطلب المزيد، ولكنها عادت بعد ثلاثة أيّام تشتكي من الصّداع وتطلب العشبة السحريّة التي أصنعها. كانت تصرّ على

أخذ العشبة. أعطيتها العشبة ناقصة كي تعود إليّ بجسدها الجافّ ونظراتها المهزومة تلك.

خلال ثلاثة أسابيع لم تعُد تقوى على الحركة، وأرسلت ابنها لكي يخبرني. فذهبتُ إليها وأنا أحمل عرائسي وسنواتي الثمانية والثلاثين، ولم أتركها حتى فارقَت الحياة.

61

جلسنا أنا وزوجي السادس كما هي العادة على الغداء، ثم ذهب لأخذ غفوة منتصف النهار. عندما نهض كان الشّاي بالأعشاب قد أُعدّ، وأصبحت الخادمة الفلبينيّة التي ترتدي الملابس الرسميّة للعمل في البيت قد أعدّت الأكواب والملاعق ورصّتها فوق الطاولة.

عندما فتحت درج العرائس، انتابني خوف من ابتعادهن عني، فلقد كُنّ متكوّمات في ركن الدُّرج الداخلي، هناك خلف الملابس الكثيرة التي تكوّمت أمامهن. أخفيتهن بوضع الملابس في أوّل الدُّرج لكي تدفع بهن إلى الخلف؛ حتى لو صادف وفتح زوجي الدُّرج فلن يجد العرائس أمامه. كنت أخاف عليهن كثيرًا.

انتابتني الوحدة معه. كان شعور بالفقد يجتاحني دون شفقة. لذلك رتّبت بدقّة متناهية تعلّمتها منه كيف أُنهي حياته خلال السنتين القادمتين، عند بلوغي الأربعين من عمري. هذا الزوج

الوحيد الذي كان موته مرتّبًا بطريقة دقيقة جدًّا حتى شعرت فيها فعلًا بأنني قتلته بلا رحمة.

62

عندما تحوّل يوم الخميس إلى يوم عمل، أصبح عمري ستة وستين عامًا، وثروتي ملايين كثيرة لم أكن أكترث لها. توقّفتُ عن تناول العشبة لسنوات طويلة بعد وفاة زوجي الأخير، ثم عدت إليها منذ خمس سنوات بعد أن أصبحت وحدتي تقتلني، وصاروا أزواجي الستة يأتوني في حلم واحد يتكرّر كلّ ليلة.

كلّهم، عندما أتزوّجهم، تتوقّف قدراتهم الجنسيّة. هي لا تتوقف تمامًا ولكنها تقلّ أمام رغبتهم في العودة إلى الطفولة والانطلاق. كلّهم كانوا يهربون من سنواتهم التي أثقلت قلوبهم وملأتها بالرّمل.

والآن أشعر بهم، وبوالدي معهم، أمام سنوات عمري الستة والستين المتراكمة خلفي. أشعر بهم يندفعون أمامي مثل عرائسي الصّامتات. أتلمّسهم وأمسح على رؤوسهم. أخلع ملابسهم وأنظّفهم ببطء. أمسح أركان أجسادهم، وهم مرتخون يُغمضون أعينهم ممسكين بالزّمن، ويتركونه يتدفّق مثل الماء على وجوههم بسلام. تلمع في رأسي كل عروقهم النافرة وأنسى الحياة وأنا بين أيديهم. كثيرًا ما كنت أشعر وكأنني ألمس سنوات أعمارهم يومًا

يومًا؛ أمسح عنها الغبار، إلى أن أصل بهم إلى الأرض حيث تكون رائحة النظافة تغلّف ابتسامتهم. أُلبسهم على مهل ثم تنتشر برودة بسيطة تدفعهم إلى النوم في حضني، بصمت، إلى أن يأتي الموت.

مرّ أسبوع وأنا أغلق عليّ باب غرفتي من الداخل، كل يوم، بعد أن أحتسي شراب الأعشاب، واضعةً عرائسي متراصّة على السرير. وبعد أن تنتشر النشوة في أطرافي، أتمدّد على الفراش، في انتظار اكتمال جفافي مع عرائسي الجميلات.

(انتهى)

1 مايو 2015

هيوستن - تكساس

نبذة عن المؤلّف

عبدالله التعزي روائي من السعودية. ولد في مكّة المكرّمة. صدرت له عدّة مجموعات قصصية وروايات من بينها: (الحفائر تتنفّس) و(حريّة الأبواب المغلقة) و(كائنات الليل) و(سيّد الطيور). أدار جمعيّة الثقافة والفنون في مدينة جدة لعدّة سنوات، وترجمت بعض أعماله إلى الإنجليزية ولغات أخرى.

«زوجي الخامس أخبرني، منذ اليوم الأوّل، أنه أتى كي يموت بين يديّ. فاحترت يومها بماذا أجيبه؟ كان مستسلمًا لي وكأنني أصبحت فعلًا قاتلة محترفة كما تتقاول نسوة الحارة»

عندما أصدر الملك فيصل قرار تحرير العبيد في السعودية، اختفت من أنحاء مكّة المكرّمة كلها تلك الجارية التي اعتنت بسعديّة ذات الخمس سنوات والتي توفيت والدتها أثناء ولادتها. لم يكن هناك سوى زوجات والدها الثلاث ليقررن مصيرها، فتاجرن بها. كيف كبُرت سعديّة الفاتنة الجمال، طفلة عذراء، وفي شيخوختها حكايات سبعة رجال مسنّين تدوّخهم بأكواب الشّاي السحريّة كي تستأنف اللعب بدُمى العرائس؛ تلك الدمى اللواتي يحدّثنها منذ كانت في الثالثة عشر من العمر.

#أجساد_جافة

ISBN 978-9948-02-713-3
9 789948 027133

الغلاف: فادي فاضل

روايات
REWAYAT